مسلمة بن عبدالملك بن مروان

فاتح شطر الأنضول ومحاصر القسطنطينية

- ٣ -

الانسان

اللواء الركن محمود شيت خطاب

١ - ظهرت مزايا مسلمة وألمعيّته مبكّراً وهو صغير السن ، فركّز أبوه عبدالملك بن مروان عليه بخاصة في وصيته أبناءه وبنيه وهو على فراش الموت ، فقال فيه : « .... وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه ، فانه نابكم الذي عنه تفترون ، ومَجِنّكم الذي عنه ترمون (١) » ، فهو قائد من قادة الفكر ، وقائد من قادة الجهاد ، بالنسبة لبني أُميّة ، لايخالفون له رأياً ، ولا يعصون له أمراً ، ويلجأون إليه في ايام المحن والحروب .

لقد كان من رجال بنى أُميّة (٢) المعدودين ، موصوفاً بالشّجاعة والاقدام ، والرأى والدهاء (٣) ، وصفه يزيد بن المُهلّب بن أبى صُفْرَة فقال : « .... إنى لقيتُ بنى مَرْوان ، فما لقيتُ منهم أمكر ولا أبعد غَدْراً من مَسْلمة (٤) » ؛ فهو داهية من الدُّهاة ، بعيد الغور ، شديد الذكاء .

---

(١) ابن الأثير (٤/١١٧ - ١١٨) .

(٢) تهذيب التهذيب (١٠/١٤٤) والبداية والنهاية (٩/٣٢٨) ونسب قريش (١٦٥) .

(٣) العبر (١/١٥٤) وشذرات الذهب (١/١٥٩) .

(٤) الطبري (٦/٥٩٣) وفيه : أبعد (غوراً) لا أبعد (غدراً) ، وانظر ابن الأثير (٥/٨٠) .

تولىّ العراقَيْن مرة ، وتولى (إرمينية) و (أذربيجان) و (الجزيرة) ثلاث مرات ، في أحرج الظّروف وأصعب الأيام ، فوطّد الأمن فيها وأعاد الاستقرار إليها ، وفرض عليها سيطرة الدولة وهيبة الحكم ؛ فكان إدارياً حازماً ، ورجل دولة من الطّراز الأول ، وقائداً متميّزاً ، ومن أقواله التي تشير إلى هذه المزايا : « مُروءتان ظاهرتان : الرياسة والفصاحة (١) » .

فلا عجب أن يهتم أبوه به حيّاً ، ويوصى به وهو يحتضر ، ويفرض شخصيته على من تولى الخلافة بعد أبيه وعلى بنى أُمية كافة ، وجميع الحكّام والمحكومين على حدسواء .

بل إنه فرض شخصيته على أعدائه أيضاً ، داخل حدودها وخارجها ، فكانوا يحسبون له ألف حساب .

فقد أسر الروم عبدالله بن كُلَيْب من بني عامر بن صَعْصَعة ، وكان مع مسلمة في غزوة من غزواته الكثيرة ، فأراد قيصر ملك الروم قتله ، فقال له عبدالله : « والله لئن قتلتني لا تبقى بَيْضَة في بلاد الاسلام إلاّ هُدمت (٢) » ، فخشي قيصر مغبة قتله ، لأنه من رجال مسلمة الذي يدافع عن رجاله ويحميهم ، ولا يتخلّى عنهم حتى ولوكانوا أسرى بيد الأعداء ، وينتقم لهم إذا ما أُصيب أحدهم بسوء ظلما .

٢ــ لقد كان مسلمة ذا شخصية قوية رصينة ، تستند على أسس ثابتة رصينة هي : الطبع الموهوب ، والعلم المكتسب ، والتجربة العلمية .

أما عن الطبع الموهوب ، فقد كان ذكياً ألمعيّ الذكاء ، ومن أحضر الناس جوابا . فقد مرّ مسلمة وكان من أجمل الناس بمُوَسْوِسٍ على مَزْبلة ، فقال له الموسوس : « لو رآك أبوك آدم ، لقَرّت عينُه بك » ، فقال مسلمة : « لورآك أبوك آدم لأذهبت سَخنةُ عينه بك قُرّة عينه بي (٣) » .

وكان بعيد النظر ، لا يكاد يترك شاردة ولا واردة إلاّ ويمعن فيها الفكر بعمق وشمول ، فقد قدّر أنّ ثورة يزيد بن المهلّب ليست هيّنة ، وربما تعصف بالدولة ،

---

(١) عيون الأخبار (٢٥٦/١) .
(٢) المعارف (٥٥٦) .
(٣) العقد الفريد (٤١/٤) .

فخاف الحرب النفسية بالإشاعات ، ومنها الادعاء بوفاة الخليفة يزيد بن عبدالملك ، فيفت ذلك في عضد الجيش ، لذلك اقترح أن يولّى هشام بن عبدالملك من بعده ، لكي يكون مسؤولاً عن تولّي الخلافة ، فيدير الدولة ، ولا يبقى عرضة للهزّات ، فبايع يزيد لأخيه هشام ، وبعده لابنه الوليد بن يزيد (١) .

٣ــ أما عن العلم المكتسب ، فقد كان مسملة محدّثاً ، روى الحديث عن عمر بن عبدالعزيز وروى عنه أبو واقد صالح بن محمد الليثي وعبدالملك بن ابي عثمان وعبيدالله ابن قزعة وعيينة والد سفيان بن عينية وعتبة بن أبي عِمْران الهلالي ويحيى بن يحيى الغسّاني ، وذكره ابن سميع في الطبقة الرابعة من تابعي أهل الشام (٢) .

وكان شاعراً مُقِلاً كما يبدو ، ومن شعره :

أرقتُ وصحراء الطَوانة بيننا ... لبرق تَلالا نحو غَمرة يلمحُ

أزاول أمراً لم يكن ليطيقه ... من القوم إلاّ اللّوْذَعيّ الصَّمَحْمَحُ (٣)

وقد كتب بها إلى الوليد بن عبدالملك من القسطنطينيّة (٤)

فاذا صحّ أنّ هذين البيتين من شعر مسلمة ، فلا يصحّ أنه كتب بها إلى الوليد بن عبدالملك ، لأنّ مسلمة لم يكن في القسطنطينية أيام الوليد ، بل كان فيها أيام سليمان بن عبدالملك كما هو معروف ، وكما ذكرنا في الحديث عن: حصار القسطنطينية وقال :

إني إذا الأصوات في القوم عَلّتْ ... في موطن تخشى به القوم العَنّتْ (٥)

مُوَطنٌ نفسي على ما خيّلتْ (٦) ... بالصبر حتى تنجلي عما انْجَلَتْ (٧)

وشعره على قلّة ما وصل إلينا منه ، يجعله من الشعراء الفرسان ، أو من شعر الفروسية ولا يمكن وضعه في مكانه بين الشعراء استناداً على هذا الشعر القليل ، كما لا يمكن تقدير قابليته الشعرية للسبب نفسه .

---

(١) ابن الأثير (٥/٩٥) وابن خلدون (٣/١٧٤) وانظر الأغاني (٧/٢) .

(٢) تهذيب التهذيب (١٠/١٤٤) وانظر البداية والنهاية (٩/٣٢٨) والعبر (١/١٥٤) وشذرات الذهب (١/١٥٩) .

(٣) الصمحمح : الرجل الشديد المجتمع الألواح ، انظر ترتيب القاموس المحيط (٢/٧٨٢) .

(٤) معجم الشعراء (٢٧٨) .

(٥) العنت : المشقة والشدة ، انظر المعجم الوسيط (٢/٦٣٠) .

(٦) خيلت : شبهت . وعلى ما خيلت : أي على كل حال .

(٧) الحيوان للجاحظ (٥/٦٠٢) .

ولكنه كان يحب الشِّعر ، ويقدر الشعراء ، ويعرف قابلياتهم الشِّعرية ، ويثمِّن إنتاجهم الشعري ، ويكرم وفادتهم ويثيبهم على شعرهم ويحميهم من السلطان .

ومن أقواله في تقويم الشعراء : « ثلاثة لا أسألُ عنهم ، أنا أعلم العرب بهم : الأخطل والفرزدق وجرير . فأما الأخطل فيجيء سابقاً أبداً ، وأما الفرزدق فيجيء مرة سابقاً ، ومرة ثانياً ، وأما جرير فيجيء سابقاً مرة وثانياً مرة وَسُكيتاً مرة (١) » .

ومن أمثلة إكرامه للشعراء ، ما حكاه كُثَيِّر(٢) ، قال : « شخصتُ أنا والأَحْوص(٣) ونُصَيْب(٤) إلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ، وكل واحد منا يُدِلّ عليه بسابقة له وإخاء ونحن لا نشك أنه يشركنا في خلافته ، فلما رفعت لنا أعلام خُناصرة (٥) ، لقينا مسلمة بن عبدالملك جائياً من عنده ، وهو يومئذٍ فتى العرب ، فسلّمنا عليه ، فردَّ علينا السلام ، ثم قال : اما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر ! قلنا : ما وضح لنا خبر حتى انتهينا اليك . ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا ، فقال : إنْ يكُ ذو دِينٍ بنى مروانَ ولِيَ وخشيتم حرمانه ، فان ذا دنياها قد بقي ، ولكم عندي ما تحبّون ، وما ألبثْ حتى أرجع إليكم ، فأمنحكم ما أنتم أهله . فلما قدم كان رحالنا عنده ، بأكرم منزل وأفضل منزول به ، فأقمنا عنده أربعة أشهر ، يطلب لنا الأذن هو وغيره ، فلم يؤذن لنا ، إلى أن قمتُ في جمعة من تلك الجُمع : و أنى دنوت من عمر ، فسمعتُ كلامه فحفظته كان ذلك رأياً ، فقلت ، فكان مما حفظت من قوله ، لكل شعر زاد لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى ، وكونوا كمن عاين مما أعدّ الله له من ثوابه وعقابه ، فترغّبوا وترهّبوا ، ولا يطولنّ عليكم الأمد ، فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم ... في كلام كثير ... ثم قال : أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه

---

(١) الشعر والشعراء (٣٩٣/١) .

(٢) كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة ، من خزاعة .

(٣) الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٨٢) ، وقد جاء نسبه في كتاب : الشعر والشعراء : الأحوص بن مالك بن جعفر بن كلاب ، وقد زاد اسم مالك في نسبه ، أنظر الشعر والشعراء (٢٥٣/١) ، والأول أصح .

(٤) نصيب بن رباح أبو محجن الشاعر ، انظر خلاصة الذهب المسبوك (٣٤) ، وكان عبداً أسود لرجل من أهل وادي القرى ، انظر الشعر والشعراء (٣٢٢/١) .

(٥) خناصرة : بليدة من أعمال حلب ، انظر معجم البلدان (٤٦٧/٣) وترتيب القاموس المحيط (١١٢/٢)

نفسي ، فتخسر صفقتي وتظهر عَيْلتي (١) وتبدو مسكنتي ، في يوم لا ينفع فيه إلاّ الحقُ والصدق ... ثم بكى حتى ظننا أنه قاضٍ نحبه ، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء والعويل . وانصرفتُ إلى صاحبيّ ، فقلت لهما : خذا في شرح(٢) من الشعر غير ما كنا نقوله لعمر وآبائه ، فان الرجل أُخرويّ ليس بدنيوىّ . إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جمعة ، فأذنَ لنا بعدما أذن للعامة ، فلما دخلتُ عليه سلمتُ ، ثم قلت : يا أمير المؤمنين ! طال الثواء ، وقلت الفائدة وتحدّثت بجفائك إيانا وفود العرب ، فقال : ياكثير ! (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرِّقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل (٣) ، في واحد من هؤلاء أنت ؟ فقلت : ابن سبيل منقطع به ، وأنا ضاحك ، قال : أو لستَ ضيف ابي سعيد (٤) ، قلت : بلى ! قال : ما أرى من كان ضيفه منقطعاً به (٥) » .

ومن أمثلة إكرامه للشعراء ، أنه قال يوماً لنُصَيْب الشّاعر : « سَلْني ! » ، قال : « لا ! » ، قال : « ولِمَ ؟ » ، قال . « لأنّ كَفّك بالجزيل أكثر من مسألتي باللسان ! » ، فأعطاه ألفي دينار (٦)

ومن أمثلة حمايته للشعراء ، أنّ الكُمَيْت بن زيد (٧) كان يمدح بني هشام ويُعَرِّض ببني أُميّة ، فطلبه هِشام بن عبدالملك ، فهرب منه عشرين سنة ، لا يستقر به القَرار من خوف هشام . وكان مسلمة بن عبدالملك له على هشام حاجة في كل يوم يقضيها له ولا يردّ فيها . فما خرج مسلمة بن عبدالملك يوماً إلى بعض صُيوده ، أتى الناس يُسَلِّمون عليه ، وأتاه الكُمَيت بن زيد فيمن أتى ، فقال : « السلام عليك أيها الأمير ورحمه الله وبركاته . أما بعد :

---

(١) العيلة : الفقر والحاجة ، انظر المعجم الوسيط (٦٤٠/٢) .

(٢) شرح : الضرب واللون ، وقد جاء في الشعر والشعراء (٤١٢/١) : شرج ، وهو تصحيف .

(٣) الآية الكريمة في سورة التوبة : ٦٠ .

(٤) أبو سعيد : مسلمة بن عبدالملك ، وهذه كنيته ، انظر تهذيب التهذيب (١٤٤/١٠) .

(٥) الشعر والشعراء (٤١١/١–٤١٢) والعقد الفريد (٧٦/٢–٨٨) ، والنص منقول عن الشعر والشعراء .

(٦) البداية والنهاية (٣٢٩/١٠) وتاريخ الاسلام (٣٠٣/٤) .

(٧) الكميت بن زيد ، من بني أسد ، وكان معلماً ، انظر الشعر والشعراء (٤٨٥/٢) .

قِفْ بالديار وُقوفَ زائِـزْ وتأَنّ إنـك غيـر صاغِرْ

حتى انتهى إلى قولـه :

يا مَسْـلم بـن أبـى الوَليـد لبيِّتٍ إن شِئْتَ ناشِـرْ
عَلِقَتْ حِبالى في حِبَـا لك ذِمّـة الجـار المُجـاورْ
فالآن صـرتُ إلى أُمَيّـة والأمـور إلى المصـايـرْ
والآن كنـتُ بـه المُصِيْـ ـبَ كَمُهْتَدٍ بالأَمسِ حائرْ »

فقال مسلمة : « سبحان الله ! من هذا الهِندِكي (١) الجِلْحَاب (٢) الذي أقبلَ من أُخريات الناس ، فبدأ بالسّلام ، ثمّ أما بعد ، ثم الشعر ؟ » ، قيل له : هذا الكُميت بن زيد ، فأعجب به لفصاحته وبلاغته ؛ فسأله مسلمة عن خَبَره ، وما كان فيه طولَ غيبته ، فذكر له سُخط أمير المؤمنين عليه ، فضمن له مسلمة أمانه . وتوجّه به حتى أدخله على هِشام ، وهشام لا يعرفه . فقال الكميت : السّلام عليك يا أميـر المؤمنين ورحمة الله وبركاته . الحمد لله ! » فقال هشام : « نعم ! الحمدلله ياهذا ! » . وتكلّم الكميت مستعطفاً ، فرضي عنه هشام وأمر له بجائزة (٣) ، إكراماً لمسلمة .

لقد كان مسلمة شاعراً ، يعرف للشعراء مكانتهم ، ويقدرهم حق قدرهم .

٤ــ وقد مدحه الشعراء ، ومن الامثلة على ذلك ما قاله الشاعر أبو نُخَيْلة التميمي فيـه :

أَمَسْلَمُ إني يـا ابنَ خير خليفةٍ ويا فارس الدنيا ويا جَبَلَ الأرض
شكرتك إنّ الشُّكر حَبْل من التُّقى وما كل مَنْ أوليتَه نعمةً يَقضي
وألقيتَ ــ لما جئتُ بابك زائراً ــ رواقاً مديداً سامق الطول والعرض
وأنبهتَ لي ذكرى وما كان خاملاً ولكنّ بعض الذكر أنبه من بعض (٤)

---

(١) الهندكى : (بكسر الهاء والدال) : الرجل من أهل الهند .
(٢) الجلحاب : الشيخ الكبير .
(٣) العقد الفريد (٢/١٨٣ــ١٨٥) وفيه تفاصيل استعطاف الكميت .
(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز (٦٤) .

ومدحه العجّاج بقصيدة طويلة من بحر الرّجز في أربعة وسبعين بيتاً نقتطف منها(١) :

مَسْلَم ، لا أَنْسَاكَ مـا بَقِيْـتُ
فَضْلَكَ والعَهْدَ الذي رضِيْـتُ
لـو أَشْـرَبُ السُّلْوانَ ما سَلِيْتُ
ما بِيْ غِنىً عنكَ وإنْ غَنِيْتْ
لـو أنَنى صَمِمْتُ أو عَمِيْتُ

وكان لا يلحن كاتباً وشاعراً وخطيباً ، ومن أقواله في اللحن : « اللحن في للكلام ، أقبح من التّفتيق في الثوب النفيس (٢) » ، وكان فصيحا (٣) . ومن اقواله : « مـا قرأت كتاباً قط لأحد إلا عرفت عقله منه (٤) » .

فلا عجب أن يوصى بثلث ماله لأهل الأدب قائلاً : « إنها صنعة جحِف (٥) أهلها (٦) .

وكان كريماً (٧) غاية الكرم ، ومن الأمثلة على كرمه أنـه دخل على عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه في المَرْضَة التي مات فيها ، فقال : « يـا أمير المؤمنين ! إنك فطمت أولاد ولدك عن هـذا المال ، وتركتهم عالة ، ولا بـد لهم من شـيء يُصْلحهم ، فلو أوصيت بهـم إليّ أو إلى نُظرائك من أهـل بيتك لكفيتك مؤونتهم إن شاء الله » . فقال عمر : « أجلسوني » ، فأجلسوه ، فقال : « الحمدلله ! أبالفقر تخوّفني يا مسلمة ! أما ما ذكرت أني فطمت الأفواه ولدى عن هذا المال وتركتهم عالة ، فاني لم أمنعهم حقاً هو لهم ، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم . وأما ما سألتَ مـن الوَصاة إليك أو إلى نُظرائك من أهل بيتي ، فان وصيّتي بهم إلى الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين . وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله ، فجعل الله له من

---

(١) ديوان العجاج (٤٦٤-٤٧١) .
(٢) عيون الأخبار (١٥٨/٢) .
(٣) البداية والنهاية (٣٢٩/٩) .
(٤) العقد الفريد (٢٥١/٢) .
(٥) جحف الشيءُ برجله : رفسه حتى يرمي به جانباً . وجحف أهلها : غبنهم .
(٦) البداية والنهاية (٣٢٩/٩) .
(٧) البداية والنهاية (٣٢٩/٩) ، وتاريخ الأسلام (٣٠٣/٤) .

أمره يُسرا ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غيّروفجر ، فلا يكون عمر أوّلَ من أعانه على ارتكابه ! ادعوا إليّ بَنيّ ، فدعوهم ، وهم يومئذ اثناعشر غلاماً ، فجعل يُصَعِّد بصره فيهم ويصوّبه حتى اغرورقت عيناه بالدّمع ، ثم قال : بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم . يابنيّ ! إني قد تركتكم من الله بخير ، لأنكم لا تمرون على مُسلم ولا مُعاهد ، إلاّ ولكم عليه حق واجب إن شاء الله . يا بَنيّ ! مَثّلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دُخول أبيكم يوماً واحداً في النار . قوموا يا بَنيّ ، عَصمكم الله ورزقكم » ، قال : فما احتاج أحدٌ من أولاد عمر ولا افتقر (١) .

وأهدى إلى الحسن البصري رضى الله عنه خَميصة (٢) لها أعلام ، وكان الحسن يُصلّي فيها (٣) .

وكان إذا كثر عليه أصحاب الحوائج ، وخاف أن يضجر ، قال لآذنه : «إيذن لجلسائي » فيأذن لهم ، فيفتن ويفتنوا في محاسن الناس ، فيضطرب لها ويهتاج ، ويصيبه ما يصيب صاحب الشَراب ، فيقول لآذنه : « إيذن لأصحاب الحوائج » ، فلا يبقى أحد إلاّ قضيت حاجته (٤) .

٥ــ وكان سمحاً يفتح بابه وقلبه لكل غادٍ ورائح ، فيقضي حاجة المحتاج ، ويأخذ بيد المضطر ، ويغيث الملهوف ، ويجير من يستجير به حتى على الخلفاء .

فقد غضب هشام بن عبدالملك على عمر بن هُبيرة ، فأُتي به إلى خالد بن عبدالله القَسْريّ وهو والي العراق ، مغلولاً مُقَيّداً في مِدْرَعة (٥) ، فلما صار بين يَدَي خالد ألقته الرجال إلى الأرض ، فقال : « أيها الامير ! إن القوم الذين أنعموا عليك بهذه النعمة ، قد أنعموا بها عليّ من قَبْلك ؛ فأنْشُدك الله أن تَسْتَنّ فيّ بسُنّة يَسْتَنّ بها فيك مَنْ بعدك » ، فأمر به إلى الحبس . وأمر ابن هُبيرة غلمانه ،

---

(١) العقد الفريد (٤/٤٣٩) .

(٢) الخميصة : كساء أسود او أحمر له أعلام .

(٣) العقد الفريد (١/٢٧٤) .

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر – نسخة دار الكتب برقم ٤٩٢ – ج ٣٢ .

(٥) المدرعة (ككنسة) : ثوب ولا يكون إلا من صوف .

فحفروا له تحت الأرض سِرْدابا ، حتى خرج الحَفْر تحت سريره ، ثمّ خرج منه ليلاً ، وقد أُعِدّت له أفراس يُدَاولها ، حتى أتى مسلمة بن عبدالملك ، فاستجار به ، فأجاره . واستَوْهبه مسلمة من هِشام بن عبدالملك ، فوهبه إيّاه . فلما قدم خالد بن عبدالله القَسْرِيّ على هشام ، وجد عنده ابنَ هبيرة ، فقال له : « إباق (١) العبد أبقْتَ ! » ، قال له حين « نمتَ نومة الأَمَة(٢) » .

ولعل من المفيد إيراد قصة لجوء عمر بن هُبَيْرة إلى مسلمة ، لأنها تبرز مزايا جديدة لمسلمة ، منها قوة شخصيته وشهامته ومروءته ، إذ لا يمكن لأي انسان أن يجير على الخليفة إلا إذا كان نداً له مقرباً إليه موثوقاً به مُعْتَمداً عليه ، ومنها ورعه وتقواه ، ومنها اكرامه للضيف والاهتمام براحته والسّهر على رعايته حتى ولو كان من المغضوب عليهم من الخليفة بالذات .

فقد روى خادم مسلمة الذي كان يشرف على وَضوئه (٣) تلك القصة الطريفة فقال : « كان مَسْلَمة بن عبدالملك يقوم من اللّيل فيتوضأ ويَتَنَفّل (٤) حتى يُصبح فيدخل على أمير المؤمنين ، فاني لأصبّ الماء على يديه من آخر اللّيل وهو يتوضّأ ، إذ صاح صائح من وراء الرُّواق : أنا بالله وبالأمير ! فقال مسلمة : صوت ابن هبيرة ، أخرُج إليه فخرجت اليه ورجعتُ فأخبرته ، فقال : أَدْخِله ، فدخل ، فاذا رجل يَميد نُعاساً ، فقال : أنا بالله وبالأمير ، فقال : أنا بالله وأنت بالله ، ثم قال : أنا بالله وبالأمير ! قال : أنا بالله وأنت بالله ، حتى قالها ثلاثاً . ثم قال : أنا بالله ! فسكت عنه ، ثم قال لي انطلق به فوضِّئه وليُصَلِّ ، ثم اعرِض عليه أحبَّ الطعام إليه فأتِه وافرش له في تلك الصُّفّة (٥) ـ الصُفّة بين يدي بُيوت النساء ، ولا تُوقِظْه حتى يقوم متى قام . فانطلقت به فتوضّأ وصلّى ، وعرضتُ عليه الطعام ، فقال : شَرْبَة سَويق (٦) ، فشرب . وفرشت

---

(١) أبق أبقاً وإباقاً : هرب ، فهو آبق وأبوق . وأبق : أبق .

(٢) العقد الفريد (٢/١٨٥) وانظر العيون والحدائق (٨٤ و ٨٥) .

(٣) الوضوء (بفتح الواو) : الماء يتوضأ به .

(٤) تنفل المصلي : صلى النوافل . والنفل : ما شرع زيادة على الفريضة والواجب . والنافلة : ما زاد على الفرض ، يقال : هو يصلي النافلة ، وفي التنزيل العزيز : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) ، جمعها : نوافل .

(٥) الصفة : البهو الواسع العالي السقف .

(٦) السويق : طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير ، يسمى بذلك لانسياقه في الحلق .

له ونام ، فجئتُ إلى مسلمة فأعلمتُه ، فغدا إلى هشام ، فجلس عنده حتى إذا حان قيامه ، قال : يا أمير المؤمنين إليّ حاجة ، قال : قُضِيَت إلاّ أن تكون في ابن هُبيرة ، قال : رَضِيْتُ يا أمير المؤمنين ؟! ثم قام منصرفاً ، حتى إذا كاد أن يخرج من الأيوان رجع ، فقال : يا أمير المؤمنين ! عوّدتنيأن تَسْتثني في حاجة من حوائجي؟ وإني أكره يتحدّث الناس أنك أحدثتَ عليّ الاستثناء ! قال : لا أستثني عليك ، قال : فهو ابن هبيرة ، فعفا عنه (١) » .

٦ــ وما دمنا قد ذكرنا النوافل التي يؤديها مسلمة ليلاً ، وهي سمة من سمات الصالحين فمن المستحسن أن نركّز على الورع في مسلمة بن عبدالملك .

قال مسلمة : « لو رأيتني أنا وعمر بن عبدالعزيز ، ننتهي إلى الزّرع ، فيقحم عمر فرسه ، وأكفّ فرسي(٢) » ، والذي يبدو أن مسلمة يتحدث عن عمر قبل توليه الخلافة ، يوم كان كأمثاله من الشباب .

ومن الواضح أن مسلمة ، كان يعتبر عمر بن عبدالعزيز بعد توليه الخلافة ، المثل الأعلى له في الورع ، ويحاول أن يتعلّم منه ويقتدي به .

أمر عمر بن عبدالعزيز مسلمةَ أن يبكّر عليه ، وأمر بطبيخ ثريد عدسٍ وبألوان من لحم ، فلما غدا عليه مسلمة أقام عنده حتى تعالى النهار ووجد الجوعَ ، فقام ليذهب ، فحبسه عمر وقال له : « إجلس » . ثم أقام حتى انتصف النهار ، ثمّ قام ، فقال له عمر : « اجلس » ، حتى إذا بلغ من مسلمة الجوع فيما يُرى عمر ، دعا بطعامه ، فقربت ثريدة العدس ، فأقبل عليها مسلمة ، فأكل اكل مجهود قد بلغ منه الجوع ، ولم يأل حتى تَمَلّأ ، فأمر عمر أن يرفع ، ودعا لهبطعام طيّب ، فقال له : « كُلْ » ، فقال : « قد شبعتُ ، ما فيّ فضل » ، قال له : « فكيف بالسَّرف في الطعام ، والتَقَحُّم في النار ، وهذا يجزى عنه ! ! » . وأراد عمر رحمه الله عظته وتأديبه ، فقصر بعد ذلك مسلمة عما كان يكون عليه (٣) .

---

(١) العقد الفريد (٢/١٨٦-١٨٧) .

(٢) تاريخ الاسلام (٤/٣٠٣) وكتاب المعرفة والتاريخ (٢/٢٢٦) .

(٣) سيرة عمر بن عبدالعزيز (٤٣-٤٤) .

وقال مسلمة : « دخلت على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه فلا يدخل عليه أحد ، فجاءت جارية بطبق تمر صيحانيّ — وكان يعجبه التمر فرفع بكفّيه منه فقال : « يا مسلمة ! أترى رجلاً لو أكل هذا ، ثم شرب عليه الماء ، فان الماء على التمر يطيب ، أكان إلى الليل يجزيه؟ فقلت : لا أدرى ! فرفع أكثر منه فقال : فهذا ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين كان كافيه دون هذا حتى ما يبالى أن لا يذوق طعاماً غيره . قال : فعلامَ ندخل النار ؟ قال مسلمة : فما وقعت مني موعظة ما وقعت منى هذه (١) » .

وكما كان مسلمة يثق بورع عمر بن عبدالعزيز ، فقد كان عمر يثق بورع مسلمة . دخل مسلمة على عمر بن عبدالعزيز في مرضه الذي مات فيه ، فأوصاه عمر أن يحضر موته ، وأن يلي غسله وتكفينه ، وأن يمشي معه الى قبره ، وأن يكون ممن يلي إدخاله في لحده . ثم نظر إلى مسلمة ، فقال : « انظر يا مسلمة بأي منزل تتركنى . وعلى أي حال أسلمتنْي اليه الدنيا ! » فقال له مسلمة : « فأوصِ يا أمير المؤمنين » ، قال « مالي من مالٍ فأوصي فيه ! » قال مسلمة : « هذه مئة ألف دينار ، فأوصِ بها بما أحببتَ » ، قال : « أو خير من ذلك يا مسلمة ؟ ... أن تردها من حيث أخذتها » ، قال مسلمة : « جزاك الله عنّا خيراً يا أمير المؤمنين ! والله لقد ألنتَ لنا قلوباً قاسية ، وجعلت لنا ذكراً في الصالحين (٢) » .

ومن المعلوم أنّ المرء لا يوصي أحداً بأن يحضر موته ، ويلي غسله وتكفينه ، ويمشي معه الى قبره ، ويدخله في لحده ، إلا إذا كان يثق بورعه وتديُّنه .

وقال مسلمة : « دخلت على عمر بن عبدالعزيز أعوده ، فاذا هو على فراش من ليف ، وتحته وسادة من أديم مسجيّ بشملة ، ذابل الشّفة ، كاسف اللّون ، وعليه قميص وسخ ، فقلت لأختي فاطمة وهي امرأته : اغسلوا ثياب أمير المؤمنين ! فقالت : نفعل . ثم عدتُ فوجدت القميص على حاله ، فقلت : ألم آمركم أن تغسلوا قميصه ؟ !

---

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز (١٣٤) .

(٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز (١٠٥) وانظر العقد الفريد (٤/٤٣٩) .

فقالت : والله ماله غيره ! ! فسبّحتُ الله وبكيت ، فقلت : يرحمك الله ! لقد خوّفتنا بالله عزّ وجلّ ، وأبقيت لنا ذكراً في الصالحين (١) » .

وقال مسلمة : « رحم الله عمي — يريد عمر بن عبدالعزيز — والله لقد هلك وما بلغ ما ناله قط شرف العطاء ، إنه والله عضّ على مقدَم قميصه ، ثم شقى في الدنيا حتى خرج منها » ، ثم قال رافعاً صوته : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) (٢) .

وقال خالد بن صَفْوان : « لقيت مسلمة بن عبدالملك بالحيرة بعد هلاك ابن المهلب ، فقال : ياخالد ! أخبرني عن حَسَنِ أهل البصرة — يريد الحسن البصريّ رضي الله عنه — قلت : أنا جاره إلى جنبه ، وجليسه في حلقته وحديثه ، وأعلم مَنْ قِبَلي به : كان أشبه الناس سريرة بعلانية ، وأشبه قولاً بفعل ، إن قعد على أمر قام به ، وإن قام بأمر قعد عليه ، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به ، وإن نهى عن شيءٍ كان أترك الناس له ؛ وجدته مستغنياً عن الناس ، ووجدت الناس محتاجين إليه » ، قال مسلمة : « حَسْبُك حَسْبُك ! كيف ضلّ قوم كان هذا فيهم ؟ ! (٣) » ، يعني كيف اتبعوا يزيد ابن المهلّب ؟

ودخل مسلمة على يزيد بن عبدالملك صاحب حبابة وسلامة ، وكان قد ترك لشغله باللهو الظهور للناس وشهادة الجمعة ، فقال له مسلمة أخوه : « يا أمير المؤمنين ! قد تركت الامور ، وأضعت المسلمين ، وقعدت في منزلك مع هاتين الأمَتَيْن ، فارعوى قليلاً وظهر للناس (٤) » ، وهذا يدل على أمره بالاستعانة والمعروف ونهيه عن المنكر ، كما أنه يدل على أنه كان رجل دولة من الطراز الرفيع ، ويعرف واجب الحاكم تجاه المحكومين ، ولا يرضى للحاكم أن يغمط حقوق المحكومين .

---

(١) مختصر تاريخ الدول (١١٥) وانظر كتاب المعرفة وتاريخ (١/٦٠٠) .

(٢) الآية الكريمة من سورة القصص (٨٣) ، وقوله من كتاب المعرفة والتاريخ (١/٥٧٩) .

(٣) كتاب المعرفة والتاريخ (٢/٥١-٥٢) ، وأوردها ابو نعيم عن طريق محمد بن ذكوان ايضاً ، انظر حلية الأولياء (٢/١٤٧-١٤٨) .

(٤) الشعر والشعراء (١/٤٢٥-٤٢٦) .

وحاصر مسلمة حصناً ، فندب الناس الى نَقْب منه ؛ فما دخله احد ، فجاء رجل من عُرْض الجيش ، فدخله ، ففتحه الله عليهم ، فنادى مسلمة : « أين صاحب النَّقْب ؟ ! » ، فما جاءه أحـــد ! فنادى : اني قد امرتُ الآذن بادخاله ساعة يأتي ، فعزمت عليه إلاّ جاء ! فجاء رجل فقال : «استأذنْ لى على الامير ، فقال له : أنت صاحب النَّقْب؟ قال : « أنا أخبركم عنه ! » فأتى مسلمة فأخبره عنه ، فأذن له ، فقال له : « إن صاحب النَّقْب يأخذ عليكم ثلاثاً : ألاتسودوا اسمه في صحيفة الى الخليفة ، ولا تأمروا له بشيء ، ولاتسألوه : ممن هو ؟ » ، قال مسلمة : « فذاك له » ، قال : « أنا هو » . فكان مسلمة لايصلّي بعدها صلاة إلاّ قال : اللّهم اجعلني مع صاحب النَّقْب »(١)

ومن أقواله في الزّهد : « ان اقل الناس همّاً في الدنيا ، أقلهم همّاً في الآخرة (٢) ، يريد الهم الذي يورثه التكالب على جمع المال وإدارته وتنميته ، والهم الذى يعقب ارتكاب ما حرم الله ورسوله ، والهم الذى يورثه ارتكاب المعاصي والآثام ، والهم الذى يعانيه مرتكب الظلم والعدوان ، والهم الذي يشقى به المرء من جراء تـــرك الفرائض والسنن ، والهم الذي يؤرّق المتخلّف عن الجهاد ، والهم الذى يشعر به المتولى يوم الزحف : ونحو ذلك .

ومن أقواله التى تدل على عمق إيمانه بالطهر المطلق للأنبياء : «الأنبياء لايتنابّون(٣) ، كما يتنابّ الناس ماناب نبيٌّ قط(٤) » ، أي أن الأنبياء بدرجة من السمو الخلقي بحيث لاينتقد بعضهم بعضاً ولايغتابون أحداً من البشر ، فذلك ليس من شأنهم ولا من صفاتهم ، كسائر الناس الذين ينتقدون ويغتابون ويتنكرون للجميل وينسون المعروف ويجفون العَشير ، تبعاً للواعج نفوسهم الامّارة بالسوء ، وانصياعاً لأهوائهم الشخصية وعواطفهم المتأرجحة دوماً بين الخير والشر .

---

(١) عيون الاخبار (١/١٧٢) .

(٢) تاريخ الاسلام (٤/٣٠٣) وكتاب المعرفة وتاريخ (٢/٢٢٦) .

(٣) نبب الشيء : عضه بنابه . يتنابون : يعض بعضهم بعضاً .

(٤) البداية والنهاية (٩/٣٢٩) .

وكان يؤدي فريضة الحج، ويقصد بيت الله في مكة المكرمة مُحْرماً ويشد الرِّحال الى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم كلما وجد الى ذلك سبيلا ، وقد تولى امارة الحج سنة أربع وتسعين الهجرية في ايام اخيه الوليد بن عبد الملك (١)

وكان كريماً (٢) لا يقتصر كرمه على الشعراء والأدباء ، وذوي القربى والأصدقاء والمحتاجين والفقراء ، بل يشمل الأعداء أيضاً ، وحسبك بذلك كرماً أصيلا .

فقد أعطى ألف دينار الى محمد بن على العباسيّ جد الخلفاء العباسيين ، وهو يعلم أنه يعمل بنشاط على الأمويين ، وفي رواية أنه أعطاه أربعة آلاف دينار (٣) .

ولم تذهب هذه الأريحية سدى ، ففي سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية، تجهز الخليفة المهدي بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي العباسي لغزو الرّوم ، فخرج وعسكر بـ (البَرَدَان)(٤) ، وجمع الأجناد من (خُراسان) وغيرها . ثم سار عنها، بعد أن استخلف على (بغـــداد) ابنه موسى الهادي ، وسار على (الموصل) و (الجزيرة) . ولما حاذى قصرَ مَسلمة بن عبدالملك ، قال العبّاس بن محمد بن علي للمهدي : « إن لمسلمة في أعناقنا مِنّة » ، وكان محمد بن علي مرّ به ، فأعطاه أربعة آلالف دينار ، وقال له : « إذا نفدت ، فلا تحتشمنا » ، فأحضر المهدي ولد مسلمة ومواليه ، وأمر لهم بعشرين ألف دينار ، وأجرى عليهم الأرزاق (٥) .

وكانت أرض (بَغراس) (٦) ملكاً لمسلمة ، فوقفها في سبيل البر (٧) ، وهذا يدل على كرمه وتديُّنه معاً .

---

(١) الطبري (٤٩١/٦) وابن الاثير (٥٩١/٤) ، البداية والنهاية (٣٢٨/٩) والمحبر (٢٦) وتاريـــخ ابن خياط (٣١٦/١) .

(٢) البداية والنهاية (٣٢٨/٩) .

(٣) هو محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ، انظر جمهرة أنساب العرب (٢٠) .

(٤) ابن خلدون (٤٤٧/٣) وابن الأثير (٦٠/٦) .

(٥) البردان : قرية من قرى بغداد على سبع فراسخ منها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١١٣/٢–١٦)

(٦) ابن الأثير (٦٠/٦) .

(٧) بغراس : مدينة بلحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية أربعة فراسخ على عين القاصد الى انطاكية من حلب في البلاد المطلة على نواحي طرسوس ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٤٥/٢) .

(٨) فتوح البلدان (٢٠٣) .

أما التجربة العمليّة لمسلمة فكانت غنية إلى أبعد الحدود ، فقد شهد كيف تدار الدولة في أعلى المستويات . مع أبيه عبدالملك بن مروان ومع إخوته من بعده ، وكان الخلفاء من إخوته يحرصون على أن يبقى إلى جانبهم مستشارا ، يتعلّمون منه أكثر مما يتعلم منهم ، إلاّ إذا حزبهم أمر يهدد الدولة تهديداً خطيراً ، فيبعثونه ليقضي على الثورات ، وليقمع الاضطرابات ، وليعيد الأمن والاستقرار .

وبالاضافة إلى ذلك ، ومن أجل ذلك ، كانت تجاربه العملية طويلة مستفيضة في اتجاهين : الاتجاه الاداري ، والاتجاه العسكري .

وتجربته في الاتجاه العسكري مكان الحديث عنها في مجال الحديث عن قيادته الذي سيأتي وشيكا .

٧ ــ أما الاتجاه الأداري ، فقد ذكرنا أنه تولى (الجزيرة) و (إرمينية) و (أذربيجان) ثلاث مرّات في أعقاب اضطرابات مريرة ، وهذه البلاد الشاسعة التي تشمل (جزيرة ابن عمر) وشمال إيران وتمتد شمالاً متغلغلة في الاتحاد السوفياتي حتى (بخارى) و (سمرقند) وتضم عدة جمهوريات من جمهوريات الاتحاد السوفياتي أهمها جمهورية (أذربيجان) و (أزبكستان) و (تركستان) ، هي القسم الشمالي الشرقي من الدولة الاسلاميّة حينذاك .

كما أنه تولىّ مرة (العراقَيْن) وهي (العراق) و (خُراسان) ، وتضم ولايته (الأفغان) و (السِّند) بالأضافة إلى (إيران) الجنوبي والعراق ، وهي القسم الشرقي من الدولة الاسلاميّة حتى حدود (الصِّين) . وتولى هذه الأصقاع في أيام ثورات عارمة واضطرابات قاسية ، فأثبت وجوده بالحزم والحكمة والكفاية ، فكان بحق إدارياً حازماً ، ورجل دولة من الطراز الرفيع .

ومن إمعان النظر في أسلوب إدارته ، نجده يأخذ بالحزم والشّدة ، حتى تستقيم له الأمور كما يريد ، فاذا استقامت الأمور ، عالج المشاكل بالحكمة والتّسامح والبناء والتعمير ، فيعيد بذلك القلوب النافرة الى الصفاء ، والنفوس المتغيِّرة إلى الرضى ، ويبني الرجال ولا يحطِّمهم ، ويسترضي الأعداء بالعفو والحسنى .

هدم (باب الابواب) ليقضي على عصيانها ، فلما استعاد فتحها أعاد بناءها وزاد في عمارها ، وحصّن أسوارها (١) ، فأصبحت أكثر عمراناً وأقوى تحصيناً .

وما يقال عن (باب الأبواب) ، يقال عن سائر المدن الأخرى .

أما عن بناء الرجال واستمالة قلوبهم ، فمن الأمثلة على ذلك ، أنّ مسلمة أقسم أن يبيع ذرية آل المهلّب إذا انتصر عليهم في حرب يزيد بن المهلّب . وانتصر مسلمة وأراد أن يبرّ بقسمه ، فقال له الجرّاح بن عبدالله الحكَميّ : « فأنا أشتريهم » ، فاشتراهم منه الجرّاح بمئة ألف وخلّى سبيلهم ، ولم يأخذ مسلمة من الجرّاح شيئاً (٢) .

ومن الواضح أنّ مسلمة أراد أن يفت في عضد آل المهلّب وهو يُقْسم أن يبيع ذراريهم ويؤثر في معنوياتهم ، وهذه هي جزء من الحرب النفسية التي مارسها مسلمة ضد يزيد بن المهلب وآل بيته في محاولةٍ لاجبارهم على الاستسلام .

ولكنه حين انتصر ، أراد أن يتحلّل من قسمه ، فباع ذريّة آل المهلّب بيعاً صورياً ، لرجل من أخلص الرجال وأنبلهم وأكثرهم مروءة وشهامة ، لكي يخلي سبيلهم ليصبحوا أحراراً ، ومن المؤكد أن الذي اشتراهم أخلى سبيلهم برغبة مسلمة وموافقته ، والدليل على ذلك أنّ مسلمة لم يأخذ ثمنهم ممن اشتراهم ، وليس بمقدور مَن اشتراهم أن يخالف أوامر مسلمة أو يحقق غير رغباته .

وكما كان للخلفاء كتاب وهيئة من الأداريين، كان لمسلمة كتابه وهيئته الأدراية ، كأي رجل دولة أمين حصيف .

فقد كان يكتب لمسلمة سميع مولاه ، وعلى ديوان الرّسائل اللّيث بن أبي رُقَيّة مولى أم الحكم بنت أبي سُفْيان بن حرب ، وعلى ديوان الخراج سليمان بن سعد الخشَنيّ ، وعلى ديوان الخاتَم نُعَيْم بن سلامة مولىً لأهل اليمن من (فِلَسْطِيْن) ، وقيل : بل رجاء بن حَيْوَة كان يتقلد الخاتَم (٣) .

---

(١) البداية والنهاية (٣٢٨/٩) .
(٢) الطبري (٦٠٢/٦) وابن الأثير (٨٦/٥) .
(٣) الطبري (١٨١/٦) .

ولا نكاد نعرف شيئاً عن الأسماء التي ذكرناها ، عدا رجاء بن حَيْوَة الذي هو أشهر من أن يُعَرَّف ، وحسبنا أن نذكر عنه أنه كان من أبرز فقهاء عصره وأكثرهم ورعاً واستقامة ، وكان عالماً عاملاً محافظاً على كرامة العلماء ، لذلك كان المستشار الأول لعمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه والموجّه الأول لسياسته الشرعيّة ، وهو الذي أشار على سليمان بن عبدالملك أن يستخلف من بعده عمر بن عبدالعزيز ، فكان له ما أراد (١) ، ووقف موقفاً حاسماً مشرّفاً بعد موت سليمان لكي يبايع بنو أميّة عمر ابن عبدالعزيز منعاً للفتنة وحقناً للدماء ، فكان بحق رجل الساعة في ذلك اليوم العصيب(٢) وكان مسلمة بن عبدالملك يقول في رجاء : « في كِنْدة ثلاثة رجال إنّ الله لينزل الغيث بهم وينصرهم على الأعداء : رجاء بن حيوة وعبادة بن نسيء وعَدِيّ بن عَدي » (٣)

فاذا عرفنا سيرة رجاء بن حيوة وجهانا سير زملائه في الهيئة الأدارية لمسلمة ، فقد يكون ما عرفناه عن رجاء مؤشراً واضحاً لأسلوب مسلمة في اختيار زملاء رجاء العاملين مع مسلمة والمتعاونين مع رجاء ، وهو أسلوب اختيار الصفوة كفاية وأمانة وقدراً وجلالا .

٨ ــ وكانت همته عالية في استصلاح الأرض لتكون صالحة للزراعة ، فقد انبثقت البُثُوق (٤) أيام الحجّاج بن يوسف الثقفيّ ، فكتب الحجّاج الى الوليد بن عبدالملك يُعْلِمه أنه قدّر لسدّها ثلاثة آلاف ألف درهم ، فاستكثرها الوليد ، فقال مسلمة : « أنا أُنفق عليها ، على أن تقطعني الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد إنفاق ثلاثة آلاف ألف درهم ، يتولىّ إنفاقها ثقتك ونصيحك الحجّاج » ، فأجابه الى ذلك ، فحصلت له أرضون من طساسيج(٥) متّصلة ، فحفر السَّيِّبَيْن (٦) وتألّف الأكَرة (٧) والمزارعين ، وعمر تلك الأرضين ، وألجأ اليها ضياعاً كثيرة للتعزز(٨) به (٩) .

---

(١) ابن الأثير (٣٩/٥) .
(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٥٠–٥٥٣) وابن الأثير (٣٩/٥–٤٠) وابن خلدون (١٦٢/١٦١/٢)، وانظر ما جاء عن رجاء في : تهذيب الأسماء واللغات (١٩٠/١) والبداية والنهاية (٣٠٤/٩) .
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١٩٠/١) .
(٤) البثوق جمع البثق ، وهي موضع انبثاق الماء من نهر أو نحوه .
(٥) الطساسيج : جمع الطسوج (بوزن قدوس) : جزء من أجزاء الكورة . والكورة : كل صقع يشتمل على عدة قرى.
(٦) السيب : مفرد السيبين ، كورة من سواد الكوفة ، وهما سيبان الأعلى والأسفل . انظر معجم البلدان(١٩٠/٥) .
(٧) الأكرة : جمع الأكار ، والأكار الحراث .
(٨) عززه : شده وقواه . واعتز به : تشرف وعد نفسه عزيزاً به . وتعزز فلان : عز ، وتعزز به : اعتز .
(٩) فتوح البلدان (٤١٣) .

والأرض التي استصلحها مسلمة بعدما كانت مستنقعات، هي في سواد مدينة(الكوفة) على نهر الفرات الأوسط ، فأنجز بذلك مشروعاً زراعياً كبيراً على حسابه الخاص ، بعد أن استكثرت الدولة الانفاق عليه ، وتلك همّة عالية في إعمار الأرض واستصلاحها يندر أن نجد لها مثيلا .

ولما توجّه مسلمة غازياً للروم باتجاه الثغور الجزريّة ، عسكر في (بالس) (١) ، فأتاه أهلها وأهل (نُويلس) (٢) و(قاصرين) (٣) و(عابدين(٤) ،و(صفّين)(٥) ، وهي قرى منسوبة إلى (بالس) ، فأتاه أهل الحد الأعلى ، فسألوه جميعاً أن يحفر لهم نهراً من (الفُرات) يسقي أرضهم ، على أن يجعلوا له الثُّلث من غلّاتهم بعد عشر السلطان الذي كان يأخذه ، فحفر لهم النهر المعروف بنهر (مسلمة) ، ووفوا له ، ورم سور (بالس) وأحكمه . ويقال : بل كان ابتداء العرض من مسلمة ، وأنه دعاهم إلى هذه المعاملة ، فلما مات مسلمة صارت (بالس) وقراها لورثته ، فلم تزل في أيديهم حتى جاءت الدولة العباسية ، فقبض عبدالله بن على بن عبدالله بن العبّاس أموال بني أُميّة ، فدخلت فيها (٦) .

ولعلّ من أسباب نجاحه إدارياً ، قوة شخصيته ومزاياه الرفيعة بالأضافة إلى قرابته القريبة من الخلفاء والأمراء .

ففي سنة إحدى ومئة الهجرية تُوفي محمد بن مروان بن الحَكَم أخو عبدالملك بن مروان ، وكان قد ولي (الجزيرة) و (إرمينية) و (أذربيجان) وغزا الرُّوم وأهل (إرمينية) عدّة دفعات ، وكان شجاعاً قوياً ، وكان عبدالملك يغبطه لذلك ولما انتظمت الأمورُ لعبدالملك ، أظهر ما في نفسه له ، فتجهز محمد ليسير إلى (أرمينية) ، فلما ودّع عبدالملك ، سأله عن سبب مسيره ، فأنشد :

---

(١) بالس : بلدة بالشام بين حلب والرقة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٦/٢) .

(٢) نويلس : كذا في فتوح البلدان (٢٠٥) ، أما في معجم البلدان (٤٦/٢) فقد جاءت (بويلس) ، وهي قرية من قرى بالس ، انظر فتوح البلدان (٢٠٥) ، ولم يرد لها ذكر في معجم البلدان .

(٣) قاصرين : بلد كان بقرب بالس ، وكان له ذكر في الفتوح ، انظر معجم البلدان (١٣/٧) ، وفي فتوح البلدان (٢٠٥) : إنها قرية من قرى بالس .

(٤) عابدين : قرية من قرى بالس ، انظر فتوح البلدان (٢٠٥) ، ولم يرد لها ذكر في معجم البلدان .

(٥) صفين : موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس ، انظر معجم البلدان (٣٧٠/٥) ، وهي قرية من قرى بالس ، انظر فتوح البلدان (٢٠٥) .

(٦) فتوح البلدان (٢٠٥-٢٠٦) ومعجم البلدان (٤٦/٢) .

وإنك لا ترى طرداً لحر كالصاق به بعضَ الهوان
فلو كنّا بمنزلة جميعاً جريتُ وأنت مضطرب العِنان

فقال له عبدالملك : « أقسمتُ عليك لتقيمنّ ، فوالله لارأيتَ منى ما تكره » ، ثم صلح له . ولما أراد الوليد عزله ، طلب مَنْ يسدّ مكانه ، فلم يقدم أحد عليه إلامسلمة ابن عبدالملك(١) .

ذلك هو مبلغ شخصية مسلمة قوّة ونفوذا ، فلا عجب أن يحظى بكل هذا النجاح إدارياً وقائدا .

٩ ــ وما دام مسلمة احرز كل هذا النجاح بكفايته ومزاياه الأخرى ، حتى أصبح محط أنظار الناس حكاماً ومحكومين ، وأصبحت له شعبية كاسحة ونفوذ عظيماً ، فلما وثق به الخلفاء بخاصة والناس بعامة ، والحكام يخشون مَنْ نال حظوته وشعبيته ومزاياه .

إنّ المتبع لسيرته يجد أنه كان مخلصاً غاية الاخلاص لبني أمية ، ويدين بالولاء المطلق للخلفاء ، ولم يكن يطمح بتولي الخلافة لأنّ بني أُمية لم يكونوا يبايعون لبني أمهات الأولاد ، ولم يكن لعبد الملك بن مروان ابن أسد رأياً ، ولا أذكى عقلاً ، ولا أشجع قلباً ، ولا أسمح نفساً ، ولا أسخى كفاً من مسلمة ، وإنما تركوه لهذا المعنى (٢) !

وكانت بنو أُميّة لا تستخلف بني الأماء ، وقالوا : لا تصلُحُ لهم العرب . وقد سابق عبدالملك بن مروان بين ولديه : سليمان ومسلمة ، فسبق سليمانُ مسلمة ، فقال

ألم أنهكم أن تحملوا اهُجَناءكم على خَيْلكم يوم الرُّهان فتُدْرِكُ
وما يستوى المرآن ، هذا ابن حُرَّة وهذا ابن أُخرى ظهرها مُتشرّك
وتضعف عضداه ويَقْصُر سوطُه وتَقْصُر رجْلاه فلا يَتَحرَّك
وأدركنه خالاتَه فنَزَعْنَه ألا إنّ عِرْقَ السّوء لابُدّ يُدْرَكُ

ثم أقبل عبدالملك على مَصْقَلة بن هُبَيْرَة الشّيباني فقال : « أتدرى مَنْ يقول هذا ؟ » ، قال : « لا أدري ! » . قال : «يقوله الشّنّىّ (٣) » . قال مسلمة : « يا أمير المؤمنين ! ما هكذا قال حاتم الطائيّ ! » ، قال عبدالملك : « ماذا قال حاتم؟! » ، « قال مسلمة » قال حاتم :

---

(١) ابن الأثير (٥/٧٠) .
(٢) العقد الفريد (٦/١٣١) .
(٣) في المرزباني (٢٤٠) : أن الشعر لعمرو بن مبردة العبدى .

« وما أنكحونا طائعين بناتهم ولكن حَطَبناها بأسيافنا قَسْرا
فما زادها فينا السِّباءُ مَذَلّةً ولا كُلِّفت خُبزاً ولا طَبخت قِدْرا
ولكنْ خلَطناها بخير نسائنا فجاءت بهم بيضاً وجوهُهُم زُهرا
وكائن ترى فينا من ابن سَبِيّةٍ إذا لَقِيَ الابطالَ يَطْعنهم شَزْرا
ويأخذ رايات الطِّعان بكفِّه فيُوردها بيضاً ويُصدرها حُمرا
أغرَّ إذا اغبَرّ اللئامُ رأيتَهُ إذا ماسَرَى ليلَ الدُّجَى قمراً بدرا »

فقال عبدالملك كالمُستحي :

« وما شَرّ الثلاثة أمَّ عمرو بصاحبك الذي لا تَصْبَحينا (١) »

ومهما يقال في صحة هذه المحاورة أو عدمها ، فهي تدل على اتجاه بني أُميّة المعروف ، وهو عدم استخلاف بني الأماء .

وكان الوليد بن يزيد بن عبدالملك قد بايع لابنيه الحَكَم وعُثْمان ، وهو أوّل مَن بايع لابن سُرّيّةٍ أَمَةٍ ، ولم يكونوا يفعلون ذلك (٢) .

لم يكن لمسلمة أمل في تولي الخلافة ، مع انه كما يقول الذهبي : « كان أحق بالملك من سائر إخوته » ، وكان ذا عقل راجح ورأى سديد يحولان بينه وبين مغامرة تشق صفوف المسلمين ، وكان بحق من أكثر الناس حرصاً على رصّ الصفوف والوحدة ، كما أنه كان يعتبر الخلافة (وسيلة) من أجل خدمة الأمة لا (غاية) من أجل أطماع شخصيّة وأمجاد أنانيّة ، وهو بحق أيضاً خدم الأمة أجل الخدمات ، وبذلك حقق (الوسيلة) واستغنى عن (الغاية) .

ويخيّل إليّ أنه كان مخلصاً لأبعد الحدود إلى أقربائه وأصحابه وأصدقائه وأترابه ، الأحياء منهم والأموات ، ولعلّ هذه الأبيات من شعره تدل على هذا الأخلاص .

---

(١) الأغاني (٦/١٣٠-١٣١) .
(٢) الأغاني (٧/٧١) .

قال مسلمة :

قد كنتُ أبكي على ما فاتَ من سلفي ... وأهل ودّي جميعاً غير أشتات

فما حياة امرىء أضحت مدامعه ... نوى بكيت على أهل المودات

فالآن إذ فرّقت بيني وبينهم ... مقسومة بين أحياء وأموات (١)

فمثل هذه النفسية المخلصة بالطبع لا بالتطبّع ، لا يمكن أن تضرب أحداً من الخلف ، لأغراضٍ شخصية وأمجاد ذاتية .

كما كان يرضخ للحق بسهولة ويسر دون مكابرة ولا مجادلة ، قال مسلمة : «أليس قد أمرتُم بالطاعة يعني (أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم)(٢) ، فقيل له : إنّ الله قد انتزعه منكم إذا خالفتم الحق ، قال تعالى : (فان تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى الله والرّسول) (٣) ، قال : فأين الله ؟ فقيل له : الكتاب ، قال : فأين الرّسول ؟ فقيل له : «السُنّة » (٤) ، فرضخ مسلمة للحق فوراً دون مماراة !

فهو يعلم أنّ الحق المعمول به حينذاك هو عدم تولية الخلافة لابن أمة ، فهو يقرّ هذا الحق ويعترف به .

لذلك لم يكن الخلفاء يخشونه على سلطتهم ، فأولوه ثقتهم الكاملة .

بقي عليّ أن اتحدث عنه رجلاً له سمات شخصية تختلف عن الرجال الآخرين . أو بتعبير آخر التحدث عن شئونه الشخصية الخاصة به .

هو مسلمة بن عبدالملك بن مروان القرشيّ الأُموي (٥) أبو سعيد وأبو الأصبغ (٦) ، وكان يلقب بالجرادة الصّفراء (٧) لصفرة كانت تعلوه (٨) ، ومع ذلك فان الجرادة

---

(١) ابن شاكر الكبتى – عيون التواريخ – نسخة مخطوطة بدار الكتب – رقم (١٤٩) حوادث سنة ١٢٩هـ .
(٢) من سورة النساء (٤ : ٥٩) .
(٣) سورة النساء (٤ : ٥٩) .
(٤) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر – نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٩٢) – (ج٣٢) .
(٥) البداية والنهاية (٣٢٨/٩) . .
(٦) جمهرة أنساب العرب(١٠٣) وتاريخ الاسلام (٣٠٢/٤) والمعارف(٣٥٨) وتهذيب التهذيب(١٤٤/١٠) .
(٧) نسب قريش (١٦٥) والبداية والنهاية (٣٢٨/٩) والمعارف (٣٥٨) ، وتاريخ الاسلام (٣٥٨/٩) وتهذيب التهذيب (١٠ / ١٤٤)
(٨) المعارف (٣٥٨) ، وعظماء من ذوى العاهات (٩٩) ، وفيه : « وكان مسلمة أصفر الجلد كأنه جرادة صفراء » .

الصفراء من أنهم الجراد في اكتساح المزارع والزروع ، فاذا ألمّت بزرع أو نبات أتت عليه ولم تُبق منه على شيءٍ، وهذا يرمز لضراوة مسلمة في الحروب وشدّة وطأته على الأعداء .

وكان جميل الصورة حبسن الوجه صبيحاً ، من أجمل الناس(١) ، وهو معدود من الطبقة الرابعة من تابعي أهل الشام (٢) .

تزوج مسلمة بالرَّباب بنت زفر (٣) بن الحارث بن عبد عمرو بن مُعاذ بن يزيد ابن عمرو الصَّعِق (٤) الفَزارى (٥) ، فكان يؤذن لأخويها : الهُذَيل والكُوْثر في أول التاس (٦) وقد يتبادر إلى الأذهان أنّ مسلمة يتحيّز لهما لأنهما أخوا زوجة الرَّباب ، والواقع أنهما كانا من الرؤساء ، كما أنّ الهُذَيْل هو قاتل يزيد بن المهلّب يوم (العَقْر) وقيل غير ذلك (٧) .

وتزوج مسلمة أمّ سَلَمة بنت يعقوب بن سلمة المخزوميّة ، وقيل تزوجها عبدالله ابن عبدالملك (٨) ، ولم تذكر المصادر التي وصلت إلي شيئاً عن زوجاته الأخرى .

ولمسلمة عَقِبُ(٩) كثير (١٠) باقٍ بقرب (حَرَّان)(١١) في حِصْن يقال له : (حصن مَسْلمة) . وله من الولد : يزيد بن مسلمة ، وابراهيم بن مسلمة قتل ،

---

(١) العقد الفريد (٤/٤١) .

(٢) تهذيب التهذيب (١٠/١٤٤) . والتابعى : من لقي الصحابة مؤمناً بالنبي صلى الله عليه وسلم ومات على الاسلام ج : التابعون .

(٣) ابن الأثير (٤/٣٤٠) وأنساب الأشراف (٥/٣٠٧) .

(٤) الصعق : هو خويلد بن نفيل بن عمرو بن كلاب ، كان سيداً يطعم الطعام بعكاظ ، وأحرقته صاعقة فلذلك سمى : الصعق ، أنظر جهرة أنساب العرب (٢٨٦) .

(٥) جمهرة أنساب العرب (٢٨٦) .

(٦) ابن الأثير (٤/٣٤٠) .

(٧) جمهرة أنساب العرب (٢٨٦) .

(٨) المحبر (٤٤٥) .

(٩) العقب : الولد ، وولد الولد الباقون بعده (ج) : أعقاب .

(١٠) المعارف (٣٥٨) .

(١١) حران : مدينة عظيمة مشهورة ، وهي قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرها يوم ، وبين الرقة يومان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢٤٢) .

وشراحيل بن مسلمة سُمَّ هو وابراهيم الأمام العباسي فماتا جميعاً في سجن مروان(١) في (حرّان) ، ومحمد بن مسلمة كان من أكرم الناس وأشجعهم ، وشهد مع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة يوم التقى مع عبدالله بن علي العباسيّ ، وكان صديقاً لعبدالله ، فأمّنه ، فلحق به ، فلما رأى فعل أهل (خُراسان) في أهل (الشّام) ، حميتْ نفسه ، فقال :

ذُلُ الحيـــاةِ وخِزْيُ المَمـــات فكلاً أراه شـــراباً وبِيـــلا

فان كان لابـــدَّ إحْداهمـــا فَسيرا إلى المَوْتِ سَيْراً جميلا (٢)

ثم لحق بمروان ، فقاتل معه حتى قُتل . ومن أولاده اسحق بن مسلمة (٣) .

و (حصن مسلمة) (٤) الذي كان يعيش فيه عقب مسلمة ، حصين من أعمال (جزيرة ابن عمر) بين رأس عَيْن (٥) و (الرَّقّة) (٦) ، بناه مسلمة (٧) ، فورثه

---

(١) مروان بن محمد بن الحكم آخر خلفاء بني أمية .

(٢) قالهما متمثلا ، والبيتان لبشامة بن الغدير من قصيدة في المفضليات (٥٩) .

(٣) انظر تفاصيل ولد مسلمة في : جمهرة أنساب العرب (١٠٣-١٠٥) .

(٤) حصن مسلمة : حصن : بالجزيرة ، بينه وبين البليخ ميل ونصف ، وشرب أهله من مصنع فيه طوله مئتا ذراع في عرض مثله ، وعمقه نحو عشرين ذراعاً ، معقود بالحجارة ، وكان مسلمة قد أصلحه . الماء يجري فيه من (البليخ) في نهر مفرد من كل سنة مرة حتى يملأه ، فيكفي أهله بقية عامهم ، ويسقي هذا النهر بساتين حصن مسلمة ، وفوهته من (البليخ) على خمسة أميال . وبين حصن مسلمة وحران تسعة فراسخ ، وهو على القاصد للرقة من حران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨٦/٣) ، والمصنع : حوض يجمع فيه ماء المطر ونحوه ، انظر المعجم الوسيط (٥٢٦/١) . والبليخ : اسم نهر بالرقة يجتمع فيه الماء من عيون ، وأعظم تلك العيون عين يقال لها : الدهبانية في أرض (حران) ، فيجري نحو خمسة أميال ، ثم يسير الى موضع قد بنى عليه مسلمة بن عبدالملك حصناً يكون أسفله قدر جريب وارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعاً ، وأجرى ماء تلك العيون تحته ، فاذا خرج من تحت الحصن يسمى : بليخاً ، ويتشعب من تلك الموضع أنهار تسقي بساتين وقرى ثم تصب في الفرات تحت (الرقة) بميل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨٢/٢-٢٨٣) وصورة الأرض (٢٠٦-٢٠٧) .

وقد جاء ذكر : (حصن مسلمة) في كتاب : بلدان الخلافة الشرقية – لسترنج ، فقال : « ينسب هذا الحصن إلى مسلمة بن عبدالملك الخليفة الأموي ، أنظر (١٣٦) ، ولم يكن مسلمة خليفة من خلفاء بني أمية ، بل كان أميراً من أمرائهم .

(٥) رأس عين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ، بينها بين نصيبين خمسة عشر فرسخاً وقريب من ذلك بينها وبين حران ، وفي رأس عين عيون كثيرة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور (خابور الفرات) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠٥/٤-٢٠٧) وصورة الأرض (٢٠٠) .

(٦) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام ، معدودة في بلاد الجزيرة ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٢/٤-٢٧٣) .

(٧) معجم البلدان (٢٨٦/٣) .

أولاده عنه ، وكان هذا الحصن قد بنى على قدر جَرِيب (١) من الأرض ، وارتفاعه في الهواء أكثر من ثلاثين ذراعاً (٢) .

وقد أطلق على عقب مسلمة لكثرتهم : (بنو مسلمة) ، وهم بطن من بطون بني أُميّة ، من قريش ، من العدنانيّة ، مساكنهم مع قومهم بني أُميّة ب (تَنْدَة) (٣) من بلاد (الأشْمُونين) (٤) في الصعيد المصري (٥) ، ولا تناقض بين سكنى بني مسلمة في (حصن مسلمة) وفي صعيد مصر ، فقد سكن قسم منهم هنا ، وقسم منهم هناك .

ولمسلمة دار في دمشق (٦) في حجلة القباب عند باب الجامع القبلي (٧) ، والجامع هو جامع بني أُمية بدمشق الذي يطلق عليه اليوم : الجامع الأُمويّ .

وكان يوسِّع على أهله بيته إسكاناً وإطعاماً وإكساءاً ، ومن أقواله : « العيش في ثلاث : سعة المنزل ، وكثرة الخدم ، وموافقة الأهل (٨) » ، ولا عجب في ذلك ، فقد كان يوسِّع على مَنْ يعرف ومَن لا يعرف من ضيوفه وقاصديه .

وتوفي في سنة عشرين ومئة الهجريّة (٩) (٧٣٧ م) ، وفي رواية أخرى أنه توفي سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية (١٠) (٧٣٨م) ، بعد أن ترك آثاراً كثيرة (١١) .

---

(١) الجريب : مكيال قدر أربعة أقفزة . وهنا يراد به مساحة من الأرض يعادل ثلث ايكر ، انظر بلدان الخلافة الشرقية (١٣٦) .

(٢) بلدان الخلافة الشرقية (١٣٦) .

(٣) تندة : قرية كبيرة في غربي النيل من الصعيد الأدنى ، انظر معجم البلدان (١٤٤/٢) ، وانظر زبدة كشف الممالك (٣٣) عن الصعيد .

(٤) انظر كتاب الاشمونين : هكذا يسميها أهل مصر ، وهي (أشمون) : بلدة قديمة عامرة آهلة ، وهي قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٦/١)

(٥) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (٤٢١) .

(٦) البداية والنهاية (٣٢٨/٩) وتاريخ الأسلام (٣٠٢/٤) .

(٧) البداية والنهاية (٣٢٨/٩) .

(٨) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (١٨٦/٣) .

(٩) تاريخ الموصل (٤٠) وتاريخ الاسلام (٤٠٣/٥) وتهذيب التهذيب (١٤٤/١٠) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٦٥/٢) ، ولكن ابن خياط أخطأ في ذكر غزوات لمسلمة سنة إحدى ومئة الهجرية (٣٦٧/٢) وكان على المحقق تصحيح ذلك ، والصواب أن مسلمة بن هشام بن عبدالملك هو الذي غزا في تلك السنة .

(١٠) البداية والنهاية (٣٢٩/٩) وتاريخ الاسلام (٢٧/٥) ودول الاسلام (٥٨/١) والعبر (١٥٤/١) وشذرات الذهب (١٥٩/١) .

(١١) نسب قريش (١٦٥) .

وكانت وفاته بالشام (١) ، ودفن بموضع يقال له : (الحانوت) (٢) ، وفي رواية أن عبدالله بن علي العباسيّ لما هزم مروان بن محمد بن الحَكَم آخر خلفاء بني أُميّة نبش قبور الأمويين ، فاستخرج مسلمة بـ (قِنّسْرين) من قبره سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية ، فلم يجد غير جمجمة فأحرقها (٣) !

فاذا كان مولده حوالي سنة ست وستين الهجرية كما ذكرنا سابقاً ، فانه مات عن عمر يناهز الرابعة والخمسين .

وهكذا خلفت النار رماداً ، وأدى الحقد الأسود إلى إحراق الموتى وصلبهم وقتل الأحياءوتشريدهم ، في محاولة لافناء بني أُمية الأحياء منهم والأموات ! !

وقد رثاه الوليد بن يزيد بن عبدالملك فقال :

أتانا بريدانِ من واسِطٍ ... يخبّان بالكُتُب المُعْجَمَهْ
أقول وما البعدُ إلاّ الرَّدى ... أَمَسْلَم لا تَبْعَدَن (٤) مَسْلَمه
فقد كنتَ نوراً لنا في البلاد ... تُضيء فقد أصبحتْ مُظلِمَه
كتَمْنَا نَعيَكَ نَخْشَى اليقين ... فَجَلّى اليقين عن الجَمْجَمَهْ (٥)
فكم من يتيم تلافيتَه ... بأرض العدوّ وكم أيِّمه (٦)
وكنتَ إذا الحربُ درّتْ دماً ... نَصَبْتَ لها رايةً مُعْلَمَه (٧)

وقال الوليد في رثائه أيضاً :

أَهَيْنَمَةٌ حديثُ القوم أم هُمْ ... سُكُوتٌ بعدما مَتَعَ(٨) النّهارُ
غزيرٌ كان بينهمُ نبيّاً ... فقول القوم وحيٌ لا يُحارُ

---

(١) خليفة بن خياط (٣٦٥/٢) وابن الأثير (٢٢٨/٥) .
(٢) البداية والنهاية (٣٢٩/٩) .
(٣) تاريخ الموصل (١٣٨) وقد توفى مؤلفه سنة (٣٣٤ هـ) = (٩٤٥ م) .
(٤) لا تبعدن : لاتهلكن .
(٥) جلى عن الشيء : كشفه واظهره . والجمجمة : إخفاء الكلام .
(٦) الأيمة : الأرملة .
(٧) الأغاني (٦/٧) ونسب قريش (١٦٥) وانظر تهذيب التهذيب (١٤٤/١٠) والبداية والنهاية (١٢٩٨/٩) وتاريخ الاسلام (٣٠٣/٤) .
(٨) متع النهار : بلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال – وقيل : متع النهار : طال وامتد .

كأنّا بعد مَسْلَمةَ المرُجّى شُروبٌ طوّحتْ بهمُ عُقَارُ
أوْ الآفٌ هِجانٌ في قيودٍ تَلَفّتُ كلّما حنّتْ ظُؤار (١)
فليتَك لم تَمُتْ وفداك قومٌ تُريح غبيّهم عنّا الدّيار
سقيمُ الصّدرُ أو شَكِسٌ بَليدٌ وآخر لا يَزُور ولا يُزار (٢)

ومن حَسَن الكلام ما قاله الوليد لما مات مَسْلَمَة ، فان هشاماً (٣) قعد للعزاء ، فأتاه الوليد ، فوقف على هشام فقال : « يا أمير المؤمنين ! إنّ عُقْبىَ مَنْ بقيَ لحوقٌ مَنْ مضَى ، وقد أقْفَرَ بعد مَسْلَمَةَ الصَّيْدُ لمن رَمَى ، واختَلّ الثّغْرُ فوهى وعلى أثَر مَنْ سَلَفَ يمضى من خَلَف : (وتزوّدوا فان خير الزّاد التقوى) (٤) » . فأعرض عنه هشام ولم يُحِرْ جوابا ، وسكتَ النّاس فلم ينطقوا (٥) .

وصدق الوليد ، فقد مات فتى العرب (٦) ، ورجل بني أميّة (٧) ، ومثله يُرْثى وعلى أمثاله يبكي الناس .

القائـــد

١ — كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومساع مشكورة ، وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصوناً وقلاعاً ، وأحيا بعزمه قصوراً وبقاعا ؛ وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد(٨) في أيامه ، في كثرة مغازيه ، وكثرة فتوحه ، وقوّة عزمه ، وشدّة بأسه ، وجودة تصرّفه في نقضه وإبرامه ، وهذا مع الكرم والفصاحة (٩) وهو بطل

---

(١) الظؤار : جمع نادر ، مفرده ظئر ، وهي الناقة العاطفة على غير ولدها المرضعة له
(٢) الأغاني (٧/٧–٨) ، ويريد بسقيم الصدر : يزيد بن الوليد ، ومعنى بالمشاكس : هشاماً ، والذي لا يزور ولا يزار مروان بن محمد .
(٣) هشام بن عبدالملك .
(٤) الآية في سورة البقرة (٢ : ١٩٧) .
(٥) ابن الأثير (٥/٢٩٠) والأغاني (٨/٨)
(٦) الشعر والشعراء (٤١١) .
(٧) نسب قريش (١٦٥) وتهذيب التهذيب (١٠/١٤٤) .
(٨) انظر سيرة خالد بن الوليد في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٥٠–٢٣٧) ، وانظر سيرته في كتابنا : خالد بن الوليد المخزومي .
(٩) البداية والنهاية (٩/٣٢٨–٣٢٩) .

كرّار (١) ، وشجاع مهيب له آثار حميدة في الحروب(٢) ، وكان موصوفاً بالشجاعة والاقدام والرأي والدهاء (٣) ، وكان من رجال بني أمية ، وله آثار كثيرة في الحروب ومكانة في الرُّوم (٤) .

وكان مسلمة باسلاً ، سأل هشام بن عبدالملك مسلمة : «يا أبا سعيد ! هل دخلك ذُعْر قطّ لحرب أو عدوّ ؟ قال : ما سَلِمْتُ في ذلك من ذعر يُنَبِّهُ عليّ حِيَلي(٥) ، ولم يَغْشَنى ذُعر قطّ سلبنى رأيي » ، فقال هشام : «صدقتَ ، هذه والله البسالة »(٦) .

وكان حازماً بعيد النظر ، يحسب لكل شيء حسابه ، ويتّخذ لكل أمر عدّته ، ويتقن المكيدة في الحرب ، ومن أقواله في ذلك : « ما أخذتُ أمراً قطُّ بحزم فَلُمت نفسي فيه ، وإن كانت العاقبة عليّ ؛ ولا أخذت أمراً قطّ وضيعت الحزم فيه ، إلاّ لُمْتُ نفسي عليه ، وإن كانت العاقبة لي (٧) » .

وقد تحدثنا عن مزاياه إنساناً : الشخصية القوية النّافذة ، الذكاء ، المحدّث ، الشاعر ، السخاء ، الكرم ، الشهامة ، المروءة ، التديُّن ، قابليته الادارية ، ثقة الناس به حكاماً ومحكومين ، الحدب والعطف ، وتقدير الناس له وإعجابهم به .

وهذه المزايا لها وزن في صفات القائد المتميز في أيام مسلمة ، ولا تزال من صفات القائد المتميز حتى اليوم .

٢ — والحق أنه كان فتى العرب (٨) بحق ، ولكنه ليس نظير خالد بن الوليد كما ذكر ابن كثير وغيره ، فليس لخالد نظير في طبقات القادة العرب والمسلمين . فيما أعرف ، غير المُثَنّى بن حارثة الشيباني (٩) في مزايا القيادة ، أما في سعة فتوحاته ، فلا نظير لخالد في القادة العرب والمسلمين ، إذا استثنينا الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ باعتباره قائداً ورسولاً .

---

(١) دول الاسلام (١/٥٨) .
(٢) تاريخ الاسلام (٤/٣٠٢) وانظر المعارف (٣٥٨) .
(٣) العبر (١/١٥٤) وشذرات الذهب (١/١٥٩) .
(٤) تهذيب التهذيب (١٠/١٤٤) والبداية والنهاية (٩/٣٢٨) .
(٥) في عيون الأخبار (١/١٧٤) : حيلة .
(٦) العقد الفريد (١/١٠٤) وعيون الأخبار (١/١٧٤) .
(٧) العقد الفريد (١/١٢٢) .
(٨) الشعر والشعراء (٤١١) .
(٩) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٢٧—٥٠) — ط ٢ .

ولكن يمكن أن نقول : إنّ مَسْلَمة بن عبدالملك هو خالد بن الوليد زمانه ، أي هو خالد زمانه لا خالد كل الازمان ، لأن مسلمة كان قائداً مبرزاً في زمانه بالنسبه للقادة الاخرين ولم يكن ابرز قائد في ايام قُتَيْبة بن مُسْلم الباهلي (١) ومحمد بن القاسم الثقَفيّ(٢) ، فلما رحلا عن هذه الدنيا في مأساة دامية مؤلمة ، أصبح مسلمة من بعدهما رجل الساعة في القيادة وأبرز القادة المعاصرين له على الاطلاق .

ومن المعلوم أنّ المؤرخين المسلمين غالباً ما يغفلون تفاصيل المعارك التي تلقى ضوءاً ساطعاً محدّداً على سمات مزايا القادة ، ولايكون إلاّ بايراد الخطة التفصيلية لكل معركة ، وكيف جرى تنفيذها ، وأثر القائد الشخصي في إدارة المعركة ، بحيث يمكن استنتاج مزايا القائد بسهولة ويسر .

والمؤرخون المحدثون عرباً ومسلمين وأجانب الذين اعتمدوا المصادر التاريخية ، اغفلوا مزايا القائد الحربيّة أو تحدّثوا عنها باقتضاب وغموض ، أو قارنوا مزاياهم بمزايا القادة المحدثين ، فحمّلوا الأمور فوق ما تطيق ، أو جعلوا القادة الأقدمين كما يريد أولئك المؤرخون لا كما كانوا ، وربما كان المؤرخ المحدث غير عسكري ، فقلب الحقائق رأساً على عقب لأنه أقحم نفسه في قضايا عسكرية ليست ضمن اختصاصه ، فجاءت استنتاجاته خاطئة غير ذات موضوع .

إن استنتاج مزايا القائد العسكرية صعب جداً بالنسبة للتاريخ المدوّن الذي بأيدينا ، ولكن وطأة هذه الصعوبة تخف كثيراً إذا درست المعارك التي خاضها القائد كافة ، الواردة في شتى المصادر لا في مصدر واحد ، لأنّ الاقتصار على دراسة معركة واحدة خاضها القائد لا على معاركه كافة ، وعلى مصدر واحد لا على مصادر شتى ، لا يبرز مزايا القائد العَسكرية بوضوح ولا يزيل الغموض التي يكتنف تلك المزايا ، وبالرغم من ذلك قد لا يستطيع الباحث المدقّق أن يعطي القائد حقّه كما كان فعلاً ، نظراً لاهمال المؤرخين القدامى هذه الناحية إهمالاً كاملا .

---

(١) انظر سيرته في العدد الثاني عشر (٤١–٧٢) والعدد الثالث عشر (١٤٥–١٦٥) من مجلة المجمع العلمي العراقي – ١٣٨٤ هـ و ١٣٨٥ هـ .

(٢) انظر سيرته في العدد السادس عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي (١٢٧–١٤٨) – ١٣٨٨ هـ .

ومع ذلك ، فما لا يدرك كلّه لا ينبغي أن يهمل ، فبعض الشيئ خير من لاشئ ، هذا إذا درس المعارك كلّهافي المصادر كلها عسكريّ مختص ، يستطيع بخبرته الطويلةوعمله أن يستنبط مزايا القائد من دراسته ، وأشك كثيراً في مقدرة غير العسكري أن يستنبط ما يستنبطه العسكري في هذا المجال ، وقد أحسن قسم من غير العسكريين في جمع تاريخ القادة ، وجمع التاريخ شئ ، واستنباط المزايا العسكرية شيىء آخر .

ولست أحاول أن اقلّل من شأن المؤرخين غير العسكريين في مجالات الدراسات العسكرية ، ولكنني أحاول ألاّ أحملهم ما لا يستطيعون ولا أكلّفهم مالا يقدرون .

لقد كان مسلمة يتحلىّ بأركان القيادة الثلاثة : الطّبْع الموهوب ، والعلم المكتسب ، والتجربة العمليـــة .

٣ ــ وقد تحدّثنا عن سماته الموهوبة فيما سلف : حزماً وعزماً ، وكرماً وفصاحة ، وشجاعة وإقدامه ورأياً ودهاءا ، وفطنة وذكاءا ، وبعد نظر وسخاءا ، وتديناً وورعا ، وشهامة ومروءة ، وشخصية قويّة ، وقابلية ادارية ، وحدباً وعطفا .

وأضاف الى مزاياه الطبيعية الموهوبة ،علماً مكتسباً ، فكان أديباً شاعرا ، ومحدثاً عالما.

وتعلم الرّماية والفروسية ، وتنظيم الجيش وإدارته ، وأساليبه التعبوية والسّوْقيّة ، كما أتقن الأساليب الادارية للجيش : تدريباً وتسليحاً ، وتجهيزاً وتموينا ، وإسكانا وتنقلا ، وتنظيماً وقيادة .

ولعلّ إعداد جيشه واستحضاراته المتقنة ، وإسكانه وتموينه ، قبل حصار القسطنطينة وبعد حصارها في صفحة (المبادرة) ، خير دليل على ذلك .

ومن المعلوم ، أنّ الخلفاء ، وبخاصة بني أُميّة ، كانوا يعدون اولادهم اعداداً عسكرياً رفيعاً ، وذلك بثلاث مراحل : التدريب العملي على الرماية والفروسية وتحمل المشاق ، فاذا قضوا هذه المرحلة بنجاح بدأوا المرحلة الثانية ، وهي مرحلة مرافقة القادة المشهود لهم بالكفاية في الحروب ، للاطلاع عن كثب على أساليب إدارة المعارك من الناحيتين الادارية والتعبوية ، والتشبّع بجو المعارك والقتال .

فاذا انتهت هذه المرحلة التي غالباً ما تصل ذروتها في سن العشرين ، بدأوا مرحلة تحمل المسئولية في القيادة الفعلية للجيوش .

ومن الطبيعي أن الذي لا يثبت جدارته في تحمل المسئولية بكفاية ومقدرة ، لا يتولى المناصب القيادية ، فما كلّ أبناء الخلفاء وأهل بيتهم تولوا مناصب قيادية ، وقسم منهم لم يمارس هذه المناصب أبدا .

وقد مرّ مسلمة بهذه المراحل الثلاث في عهد أبيه عبدالملك بن مروان (١) ، الذي كان رجل بني أُميّة بحق في القضايا العسكرية ، بالاضافة إلى مزاياه الأخرى .

واستطاع مسلمة أن يجتاز هذه المراحل بتفوّق باهر ، فأصبح موضع ثقة والده عبدالملك ، فقال فيه وهو على فراش الموت في وصيته بنيه وآل بيته : « .... وانظروا مَسْلَمة ، فاصدروا عن رأيه ، فانه نابكم (٢) الذي اليه تفترون(٣) ، ومِجَنّكم(٤) الذي عنه تَرْمُون ... » (٥) ، وما أعظمها من شهادة وما أضخمها من ثقة وما أكبرها من تقديـــر .

إنه يقول : مسلمة أسدّكم رأياً وأرجحكم عقلا ، فلا تخالفوه في شيء . وهـــو سيّدكم الذي يشيع فيكم السكينة والأمن الاطمئنان ، وهو حاميكم من كل سوء في أيام الحرب والسّلام ، ولا أظن أنّ هناك والداً بلغت ثقته بولده ما بلغت ثقة عبدالملك بمسلمة ، وهذا هو منتهى النجاح الذي حقّقه مسلمة على يد والده ومعلّمه الأول قائداً وإدارياً وإنساناً .

فلا عجب أن يردّد مؤرخوه بأنه كان أحق أبناء عبدالملك بالخلافة ، لولا أنه ابن أمة ، ولم يكونوا يولّون الخلافة لبني أمهات الأولاد !

أما التجربة العملية قائداً ، فقد تولى القيادة سنة ست وثمانين الهجرية في أواخر حياة أبيه عبدالملك بن مروان ، ليس لأنه ابن الخليفة حسب ، فمن المعلوم أن قسماً مـــن

---

(١) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح المغرب (٢/٥٩-١٥٢) .

(٢) ناب القوم : سيدهم .

(٣) تفترون : تطمئنون وتسكنون . فتر الى الشيء : اطمأن وسكن . وفي الحديث : « من فتر الى سنتي فقد نجا » .

(٤) المجن : الترس ، وفلان مجنكم : حاميكم .

(٥) ابن الأثير (٤/١١٧-١١٨).

إخوته لم يتولّوا مناصب قيادية ولا شهدوا معركة في حياتهم كلّها قادة أو جنوداً ، منهم على سبيل المثال أبو بكر بن عبدالملك الذي كان اسمه : بَكّاراً (١) ، ومحمد بن عبدالملك وسعيد بن عبدالملك وكانا ناسكَيْن (٢) .

كما أن أي خليفة أو ملك أو رئيس لا يمكن أن يولّى أولاده المناصب القيادية إلاّ إذا كانوا قادرين على تحمل أعبائها بكفاية ، لأن توليتهم مثل هذه المناصب تؤدي حتماً إلى التضحية برجالهم في مجزرة لا تعرف نتائجها الوخيمة دون مسوّغ معقول أو منطقي ، مما يزعزع أركان سلطانهم ويلحق بسمعهم أفدح الأضرار . ومن المحتمل أن يولوهم مناصب إداريّة مع إعانتهم برجال قادرين يستعينون بهم في تسيير أعمالهم ، أما أن يولوهم مناصب قيادية ، فلا !

ومن المعلوم أنّ المرء يكون قادراً على حمل السّلاح وخوض عمار الحرب وممارسة القتال في سن العشرين من عمره كمعدل نسبيّ . وقد يكون المرء جاهزاً لذلك قبل سنتين أو ثلاث سنوات على الأكثر جندياً ، أما أن يكون قائداً له مسئولياته القيادية ، فلا يتولى القيادة قبل العشرين من عمره ، إلاّ نادراً كما هو الحال بالنسبة لأسامة بن زيد رضى الله عنه ومحمد بن القاسم الثقفي اللذين توليا منصب القيادة قبل أن يبلغا العشرين ، وهذا أمر يعتبر شاذاً ، ولا قياس على الشواذ .

ومضى مسلمة من سنة ست وثمانين الهجريّة حتى تقاعد سنة اربع عشرة ومئة الهجرية قائداً دون توقف إلاّ سنة إحدى عشرة ومئة الهجريّة ، وأحسب أن توقفه في هذه السنة كان لأسباب مرضيّة ، كما أحسب أن تقاعده بعد سنة أربع عشرة ومئة الهجرية حتى توفّاه الله سنة عشرين ومئة الهجريّة أو سنة إحدى وعشرين الهجريّة . كان لمرضه ومعنى هذا أنه أمضى كل سنى حياته قائداً، فاذا توفي عن عمر يناهز الرابعة والخمسين كما ذكرنا سابقاً ، وتولى القيادة بعد أن بلغ العشرين من عمره ، فانه كان قادراً على تولّي القيادة أربعاً وثلاثين سنة ، مارس منها القيادة سبعاً وعشرين سنة ، وأقعده المرض عن ممارسة الجهاد سبع سنوات فقط !

---

(١) انظر المعارف (٣٥٨) .

(٢) جمهرة أنساب العرب (٨٩) .

ولا أعتقد أنّ هناك قائداً مارس القيادة أربعة أخماس سني حياته في ساحات القتال ، وتخلّف خمس سني حياته عن تلك السّاحات مضطرا .

إنّ مسلمة قضى أكثر حياته في التجربة العملية قائدا ، وكان بمقدوره أن يتولىّ إمارة الأمصار واليا ، فينعم بالسلطة والراحة بعيداً عن أهوال القتال ، ولكن مسلمة خلق ليكون غازياً لا ليكون واليـــا .

٤ ــ فماذا عن مسلمة القائد في رسم الخطط العسكرية ؟

من المعلوم أنّ الخطّة العسكرية قسمان : قسم إداري ، وهو الجانب الاداريّ من الخُطّة : حشداً للمصادر البشريّة ، وتجهيزها ، وتموينها ، وإسكانها ، ونقلها ، وطياتها ، وتسليحها ، ومرتّباتها . وقد برز مسلمة في ذلك بشكل ملموس في حصار (القسطنطينية) كما ذكره المؤرخون بالتفصيل في تلك الملحمة ، مما يدل على كفايته الفذّة في هذا المجال .

والواقع أنه اهتمّ بأدق التفاصيل من الجانب الاداري لخطّته في حصار (القسطنطينية) بمعاونة سليمان بن عبدالملك ، ومن الانصاف أن نسجّل لسليمان تلك المعاونة الصّادقة السخيّة بالتقدير والاعجاب .

وليس معنى إغفال المؤرخين للجانب الاداري من خطط مسلمة العسكريّةالأخرى ، أنه أهملها ولم يعرها اهتمامه البالغ وعنايته الفائقة فلو أنه أهملها لما انتصر أبدا .

أما قسم العمليّات في رسم الخطّة العسكرية ، فيبدو أنه كان ماهراً في تطبيق مبدأ (المباغتة) وهي أهمّ مبادئ الحرب على الاطلاق .

فقد تحرّك سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩ م)على رأس قوّاته إلى (إرمينية) ، و (أذربيجان) بعد استشهاد قائدها وأميرها الجرّاح بن عبدالله الحَكَمِيّ وتمزيق جيش المسلمين فيها ، فوصل إلى البلاد وسار إلى الترك الذين قتلوا الجرّاح ومزّقوا جيشه ــ في شتاء شديد ، حتى جاز (الباب) في آثارهم ، وبذلك باغت الترك المنتصرين مباغتة كاملة ، فقلب نصرهم إلى هزيمة ، لأنّ الترك لم يكونوا يتوقعون أن يقاتلهم المسلمون شتاء في مناطق قارسة البرد ، فكانت حركة مسلمة في شتاء مباغتة في الزمان للترك .

والمباغتة إما أن تكون بالزمان : في وقت لا يتوقّعه العدو وإما أن تكون بالمكان ، من اتجاه لا يتوقّعه العدو ، واما أن تكون بالاسلوب : ! إسلوب قتالي لا يتوقّعه العدو ، إما أن تكون بالسّلاح ، باستخدام سلاح جديد لا يتوقّعه العدو .

ومن الأمثلة على تطبيق مَسْلمة مبدأ (المباغتة) بالأسلوب ، ما نفذّه سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠ م) في الانسحاب أمام تفوّق الخزر العدديّ ، إذ أمر أصحابه بايقاد النيران ، وترك خيامهم وأثقالهم ، ثم قدّم الضعفاء وأخرّ الشجعان ، وطوى المراحل : كل مرحلتين في رحلة واحدة ، وبذلك أنقذ قوّاته بهذا الأسلوب في الانسحاب من خطر مطاردتها وإلحاق الخسائر الفادحة بها ، وحرم الخزر من إحراز إنتصار ساحق على جيشه .

لقد وجد الخزر نيران المسلمين مضرمة ، وخيامهم قائمة وأثقالهم باقية ، فحسبوا أنّ قواتهم الضاربة في مكانها ، بينما أخلى مسلمة الضعفاء ، وأبقى الشجعان ليغطوا حركة الانسحاب السريع المنظّم ، فلما اكتشف الخزر انسحاب المسلمين كان الوقت المناسب للقيام بمطاردة المسلمين قد فات ، وبهذا باغت مسلمة أعداءه بالأسلوب .

ولم يتحدّث المؤرخون عن انسحاب مسلمة من محاصَرة (القسطنطينية) ، ولكنهم لم يتحدثوا عن مطاردة الروم للمسلمين بعد انسحابهم ، مما يدل على أنّ مسلمة انسحب بالمسلمين وفق خطّة مرسومة محكمة ، إلى القواعد المتقدمة ، فحرم الروم من مطاردة توقع أفدح الخسائر بالمسلمين .

وقد كان انسحاب المسلمين من حصار (القسطنطينية) مباغتة للروم بالأسلوب أيضا .

ولعلّ من المفيد أن نذكر ان إدارة معركة الانسحاب ، أصعب بكثير من إدارة معركة مسير الاقتراب ، والدفاع ، والهجوم ، والمطاردة ، لأنّ الانسحاب يؤدى إلى زعزعة المعنويات ، كما أن احتمال تعرض المقاتلين للاخطار عند الانسحاب اكبر من احتمال تعرضهم في صفحات القتال الأربع الأخرى .

فاذا أثبت أي قائد وجوده في معركة انسحابية ، فهو قادر على إدارة أي معركة اخرى تقدماً أو دفاعاً أو هجوماً أو مطاردة .

ولكن مسلمة لم يقتصر على تطبيق مبدأ (المباغتة) من مبادئ الحرب ، بل طبق مبادئ الحرب الاخرى بنفس الكفاية والحرص الذي طبّق بهما مبدأ المباغتة .

فقد كان (يختار مقصده ويديمه) ، فهو دائماً يعرف ما يريد ، ويسعى جاهداً للحصول عليه من أقصر الطرق وبأقل الخسائر المادية والمعنوية .

وكان قائداً (تعرّضياً) ، لم يلجأ إلى الدّفاع في معاركه ، وكانت كل المعارك التي خاضها تعرضية ، عدا حصار (القسطنطينية) الذي كان تعرضاً حقيقياً لم يكتب له النجاح ، ولم يمارس (الانسحاب) إلاّ مرتين كما ذكرنا سابقاً ، ولو أن الانسحاب أيضاً لا يتم الاّ بتعرض تعبويّ محليّ ، ويمارسه القائد لانقاذ جيشه من المطاردة ، لذلك اعتبر قسم من أساطين العسكريين الانسحاب تعرضاً معكوسا .

وكان (يحشد) قواته من الناحيتين المادية والمعنوية في المكان والزمان الحازمين ، وقد استطاع حشد عشرين ومئة ألف في غزوة (القسطنطينية) عدا ما وصل إليه من مدد متعاقب متّصل ، وهذا العدد يعتبر ضخماً بالنسبة للحشود في أيامه ، والأرقام التي توردها المصادر التاريخيّة القديمة فيها مبالغة كبيرة في أكثر الأحيان .

وكان يحرص غاية الحرص على (الاقتصاد بالمجهود) ، فلا يستخدم غير القوّات المناسبة للواجب المناسب ، وهذا أدى إلى عدم تكبّد قواته خسائر لا مسوّغ لها .

وكان يهتمّ كثيراً بمتطلبات (الأمن) ، فيوفّر الحماية الكافية لقواته لمواصلتها خوفاً من (المباغتة) ، لذلك لم يستطيع أعداؤه أن يباغتوا قوّاته أبدا . وكان يخرج المقدمات والمجنبات في مسير الاقتراب ، ويؤمّن السّاقات في الانسحاب . ويخصّص القطع العسكرية اللازمة لحماية خطوط مواصلاته وقواعده المتقدّمة .

وكان (التعاون) من أهدافه في كل معاركه ، فكانت قواته تتعاون فيما بينها ، وكانت تتعاون مع القوات الأخرى التي تقاتل في ساحة القتال من اجل تخفيف الضغط على جيشه ، كما كان يتعاون مع الحلفاء تعاوناً وثيقاً لامداده بالرجال والمعدّات .

وكان (يديم معنويات) رجاله ، ووجوده بين هؤلاء الرجال قائداً ، يرفع معنويات رجاله من جهة ، ويزعزع معنويات عدوه من جهة أخرى .

وقد رأينا كيف تزعزعت معنويات قوّات يزيد بن المهلّب ، بمجرد علمهم بأنه يقود الحملة التي جاءت لحربهم ، مما جعل يزيد بن المهلّب يخطب رجاله في محاولة لرفع معنوياتهم ، ولكن محاولته باءت بالاخفاق .

وقبيل خوضه المعركة الحاسمة ضد يزيد بن المهلب، أحرق الجسر الذي يمثل الشريان الرئيس لخطوط انسحاب قوّات ابن المهلب ، وبذلك زعزع معنوياتهم فهرب أكثرها قبل نشوب القتال .

وحين غزا مسلمة (عَمّوريّة) حمل معه نساءه إرادة الجدّ في القتال للغيرة على الحرم (١) ، حتى يديم معنويات قوّاته ويسمو بها إلى أعلى الدرجات .

وحمل النّساء في الحرب، بالرغم من الأخطار التي يمكن أن تتعرض له، يعتبر دليلاً واضحاً على تحليّ مسلمة بارادة القتال ، التي هي : الرّغبة الأكيدة في الثبات عند القتال من أجل تحقيق النّصر وتحمل أعباء الحرب بذلاً للأموال والأنفس ، واستهانة بالأضرار والشدائد ، وصبراً في الباساء والضرّاء وحين البأس ، مهما طال الأمد وَبعُدَ الشّوط وكثر العناء وازدادت المصاعب وتكاثرت التضحيات (٢) .

والقائد الذي لا يتحلّى بمزية : إرادة القتال ، قد يهرب عند الصدمة الأولى لينجو بنفسه ، فلا ينتصر أبدا .

والذي يبدو هو أنّ مسلمة يتفق مع خالد بن الوليد في شدته القاسية أثناء القتال ، ويختلف معه في رحمته لأعدائه بعد أن تضع الحرب أوزارها ، فكان يحنو على المغلوبين ويترضىّ المنهزمين ويعفو عن المحاربين كلما استطاع الى ذلك سبيلا .

وبهذا التسّامح من موطن القّوة لا من موطن الضعف ، جعل أعداءه يأملون بالعفو والحياة الكريمة الرضيّة حتى في حالة هزيمتهم ، إذا استسلموا وأخلصوا للدولة وللحكم القائم ، مما يؤدي الى عدم استقتالهم الى آخر سهم وآخر مقاتل .

كما أنّ مسلمة كان يخرّب لمصلحة إحراز النصر ، ولكنه يعود بعد النصر ، فيعمر ماخرّب ويشيّدها . هدم ويبني ما حطم . وقد علمنا أنه هدم مدينة (باب الأبواب) ليقضي على عصيانها ، فلما استسلمت أعاد بناءها وزاد في عمارها ، وحصّن أسوارها ، فأصبحت أكثر عماراً ، وأقوى تحصينا .

---

(١) فتوح البلدان (٢٢٩) .

(٢) أنظر كتابنا : إرادة القتال في الجهاد الاسلامي ص (١٦) .

إنه يخرّب لا من أجل الخراب ، ولا من أجل الانتقام ، ولا من أجل ! إخافة سائر الأعداء ، ليكون الخراب عبرة لمن اعتبر ؛ بل كان يخرّب لضرورة حربية ، فاذا زالت تلك الضرورة عاد فبنى ما خرّب ، وأصلح ما دمر .

وبهذا الأسلوب وهذه الطريقة ، يقضي على الأحقاد والضغائن ، ويجمع الصفوف وينقّي القلوب من الحقد الدفين .

وثمة سمة أخرى تميّز قيادة مسلمة ، وهي أنه كان يقود بعقله أكثر مما كان يقود بسيفه ، فلا يباشر القتال إلاّ نادرا ، بينما كان خالد بن الوليد يقود بعقله ويقود بسيفه ، ويباشر القتال بنفسه ، ويستهدف قائد العدو ، فينقض عليه كالصّاعقة ، فيأسره أو يقتله

وقد كان قادة بني أميّة يقودون بعقولهم أكثر مما كانوا يقودون بسيوفهم ، وأقصد بقادة بني أميّة القادة الأُمويين نسبا ، لا القادة الذين تولوا قيادة الجيوش في عهدهم ، فقد كان بين هؤلاء من يقود بعقله وسيفه على حد سواء ، كقتيبة بن مُسلم البّاهِليّ ومحمد بن القاسم الثّقفيّ .

والقادة في رأيي ثلاثة أنواع : قائد يقود بعقله ، وقائد يقود بسيفه ، وقائد يقود بعقله وسيفه .

أما القادة الذين يقودون بعقولهم . فهم قادة متميّزون وليسوا جنوداً متميّزين . وأما القادة الذين يقودون بسيوفهم فهم جنود متميزون وليسوا قادة متميّزين ، وأما القادة الذين يقودون بعقولهم وسيوفهم معاً فهم قادة متميّزون وجنود متميزون في آن واحد .

والقادة الأُمويون على الأكثر قادة متميّزون ، وقد يكونون جنوداً متميّزين أيضاً ، ولكن صفة القيادة المتميّزة فيهم أظهر وأبرز .

وكان بامكان مسلمة أن يكون قائداً متميّزاً ، وجندياً متميزاً ، لأنه كان فارساً شجاعاً ، ورامياً بارعاً ، وبطلاً كرّارا ، ومقاتلاً مغوارا ، ولكنه آثر كما آثر بنو أُميّة أن يديروا الأُلوف من رجالهم بعقولهم لاحراز النصر ، لا أن يصبحوا فرداً من بين تلك الالوف . وقد يموت الفرد شهيداً وهو جندي فينقص تَعْداد الجيش عدداً من الشهداء قل أو كثر ، فلا تكون تلك الخسائر إلاّ لبنات في صرح النصر . ،ولكن خسارة القائد تؤدي إلى الهزيمة ، وشتان بين استشهاد القائد وهو العقل المدبّر والرجل المسيطر والعامل المؤثّر ، وبين استشهاد ، الجنود وهم لبنات النصر وعدّته ، ولا نصر بدون قيادة قادرة وجنود شهداء .

٥ ــ لقد كان لمسلمة قابليّة على إعطاء القرار السّريع الصائب ، لأنه كان ذكياً ، حاضر البديهة ، عالماً مجرّباً ، لذلك كان القائد الأول في الدولة الأموية بعد محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم والمستشار الأوّل للخلفاء في نفس الوقت .

وكان يتحلّى بالشّجاعة الشخصيّة ، مقداماً غير هيّاب ، وبطلاً لا يخشى المصاعب والأهوال .

وكان ذا إرادة قويّة ، إذا قرّر أمراً واقتنع به ، ينفذه بحزم وإصرار ، ولا نعرف له موقفاً أبدى فيه تردّدا .

وكان يتحمّل المسئوليّة بلا تردّد أيضاً ، ولا يحاول التملّص منها أو إلقاءها على عاتق الآخرين . وقد قبل مسئوليات ضخمة في أوقات عصيبة ، وأثبت جدارة فائقة في تحمل أعبائها ، وكمثال على ذلك قبوله مسئولية حرب يزيد بن المهلّب في ثورته العارمة العاصفة ، بالرغم من مكانة ابن المهلّب داخلياً وخارجياً ، وبالرغم من استفحال أمره في العراق وفارس وخُراسان .

والواقع أنه تحمّل مسئوليات ثقيلة ، كان بعضها يهدّد مصير الدولة بالزوال .

وكان يعرف (مبادئ الحرب) ويطبقها بكفاية ، وحسبنا ما شرحناه في مجال التطبيق

وكان يتحلّى بنفسيّة لا تتبدل في حالة النصر والاندحار : يتقبل النقد بصدر رحب ، ويصغي للناصحين الصادقين ، ويستشير أهل الرأي والفطنة في أموره ، ويفتح أبوابه للناس ، ولا يتعالى على أحد غروراً بانتصاراته أو مكانته الرفيعة بين الحكّام والمحكومين على حد سواء ، أما في حالة الاندحار ، فيسيطر على أعصابه ، ولا ينهار أو يهون أو يتخاذل ، ولا يبدو عليه ضعف ولا تظهر عليه استكانة ، بل يتحرّك بكل وسيلة ممكنة لانقاذ الموقف وتبديله من حال إلى حال .

وكان يسبق النّظر ويُعدُّ لكل أمر عدّته ، ويدخل في حسابه أسوأ الاحتمالات ، حتى لا يُفاجأ بما لا يتوقّعه من أحداث .

ولم يقتصر في سبق النظر على معضلاته العسكرية والادارية ، بل يسبق النظر حتى في قضايا الدولة العليا ، وكمثال على ذلك اقتراحه على الخليفة يزيد بن الملك أن يختار ولياً للعهد من بعده ، فاختار هشام بن عبدالملك ومن بعده الوليد بن يزيد بن عبدالملك .

وكان يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم ، لأنه قضى معظم حياته بينهم ، لأنه كان يخالطهم مخالطة الندّ للندّ ، ويقصده كل فرد منهم زائراً أو من أجل قضاء حاجاته لهذا كان يختار الرجل المناسب للعمل المناسب ، كلٌّ حسب كفاياته ومزاياه .

وكان يثق برجاله المرؤسين له ، ويثق برؤسائه من الخلفاء ، ويثق به رجاله ورؤساؤه ثقة مطلقة ، نظراً لاخلاصه وأمانته وسجاياه الأخرى .

وكان يحب الخلفاء ورجاله ويحبونه ، فقد كان آلفاً مألوفاً ، يعمل للمصلحة العليا للدولة أكثر مما يعمل لنفسه ، ويسدي العون الخالص لأتباعه ، ويسعى لقضاء حوائجهم وكانت له شخصيّة قويّة نافذة . تطغى حتى على شخصيات الخلفاء من بعد أبيه ، فلا يُرَدّ له طلب ، ويدخل عليهم متى شاء ، ويقدّم النُّصح لهم بالحسنى ، ويأمر المنحرف منهم بالعودة إلى الصّواب . أما أنداده وأتباعه فيهابونه من دون خوف ، ويخشونه من غير رهبة ، يتواضع للصغير ، ويوقر الكبير ، ولا يعصون له أمرا ، وينفذونها بحماسة وبطيبة قلب .

ولم تكن شخصيته ذات أثر في محيطه العربي والاسلامي ، بل فرضها على الروم والترك والفُرس والأقوام الأخرى .

وكانت له قابليّة بدنيّة تعينه على تحمل المشاق العسكرية إلى درجة ما ، وأحسب أنه لم يكن قوياً جداً بدنياً ، إذ أخذه صداع عظيم حين كان يحاصر القسطنطينية (١) وكان يومها في مقتبل العمر وفي ريعان الشّباب ، وسابق الوليد بن عبدالملك بالخيل بحضور والدهما عبدالملك بن مروان ، فسبقه الوليد كما ذكرنا سابقاً .

وكان لمسلمة ماضٍ ناصع مجيد في المجالين العسكري والاداريّ ، وفي المجال الشخصيّ ، إذ لم يطعن أحد في سلوكه وخلقه واستقامته ونزاهته ، بينما شنّع المؤرخون بالمنحرفين أخلاقياً من بني بيته كما هو معروف (٢) .

لقد كان مسلمة بحق قائداً متميّزاً ، ترك بصماته على الدولة دفاعاً عنها وإخلاصاً لها ودعماً لمكانتها ، كما ترك فتوحاته شاهداً باقياً على كفايته القيادية ، فلا عجب أن

---

(١) البداية والنهاية (٣٢٨/٩) .

(٢) انظر كتابنا : الرسول القائد (٤٢٨) حول الصفات المثالية للقائد .

يترك رحيلة فراغاً هائلاً لم يستطيع ان يملأه غيره من آل بيته ولا من القادة الآخرين(١).

٦ ــ ولكن لابدّ لنا من ذكر حقيقة قد لا تؤثر في مزايا قيادة مسلمة ، ولكنها تلقي ضوءاً على سبب مهم جداً من أسباب انتصاراته المتوالية في قتال الأعداء الخارجيين الأجانب قائداً فاتحاً ، وفي اقتتاله ضد الأعداء الخارجين على الدولة قائداً إداريا ، وبتعبير آخر ، في القتال الخارجيّ ، وفي الاقتتال الداخلي فاتحاً في القتال وموطّداً للأمن الداخلي من الاقتتال .

هذا السبب ، هو صلته الوثيقة بالخلفاء : الوالد والاخوة وأبناء العم ، وهي الصلة جعلت المجال أمامه مفتوحاً ، لتسخير منابع الدولة كافة بشرية ومالية ومادية ومعنوية ، من أجل تحقيق أهدافه في الفتح خارجياً ، وفي توطيد الأمن داخلياً .

لقد كان يقود جيشاً ضخماً في عَدَده ، متكاملاً في عُدَده ، تتدفق عليه قضاياه الادارية تموينا وتسليحاً وتجهيزاً ونقلا ، وتصرف عليه الأموال الطائلة رواتب ومكافآت وإسكانا ، وليس من شك في أنّ صلته القريبة بالخلفاء ، واعتمادهم عليه وثقتهم به اعتماداً وثقة بغير حدود ، وتلبية لطلباته واستجابة لرغباته بغير تردّد ، كل ذلك كان له أثر أيّ أثر في انتصاراته خارجياً داخلياً وفي قتاله واقتتاله .

وقد مرّ بنا أنّ مسلمة عزله الخليفة عن (العراقَيْن) لأنه تصرف بالواردات دون الرجوع إلى الخليفة ولم يبعث منها الى (دمشق) درهما ولا ديناراً .

وما كان مسلمة محتاجا الى مراجعة الخليفة فيما يأخذ أو يعطي من المال ، لأنه ليس متهما في ذمته ، ولأن منزلته أعلى من منزلة المراجعة والاستئذان .

---

(١) في آثار البلاد وأخبار العباد (٥٠٨) ، ورد في معرض الحديث عن مدينة (باب الأبواب) : « وخارج المدينة تل عليه مسجد ، في محرابه سيف يقولون : إنه سيف مسلمة بن عبدالملك بن مروان ، يزوره الناس ، ولايزار الا في ثياب بيض ، فمن قصده في ثياب مصبوغة ، جاءت الامطار والرياح ، وكاد يهلك ما حول التل. وعليه حفاظ يمنعون من يذهب اليه بالثياب المصبوغة » .

وبالرغم من وضوح الأسطورة في هذا الادعاء ، إلا أنه يظهر مبلغ الأثر النفسي الذي بقي لمسلمة في تلك المناطق ، والواقع انه حصن المدينة وعمرها وأولاها كل اهتمامه ، فكان لاهتمامه في إعمارها وتحصينها أثره الباقي في نفوس سكان المنطقة حتى بعد وفاته لمدة قرون طويلة .

وكما كان الخليفة ينفق من هذا المال دون حسيب أو رقيب ، كان مسلمة كذلك ينفق ما يريد دون حسيب أو رقيب .

لقد كان مسلمة (يأخذ) ولا (يُعْطَى) ، وهذا هو الفرق بينه وبين القادة الآخرين وكما انتصر مونتكومرى في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩—١٩٤٥) بتفوقه على رومل في شمالي إفريقية بالموارد البشرية والمادية الأخرى ، وعلى كيسرلنك في إيطاليا وعلى رونشتد في غربي أوربا بعد الانزال في نورماندى ، وبالاضافة الى المزايا القيـــادية لمونتكومرى ، كذلك تغلّب مسلمة على الرُّوم والترك والخزر مقاتلاً ، وعلى الخوارج وابن المهلّب مقتتلا ، بموارده البشرية والمادية الأخرى ، وبالاضافة الى مزاياه القيادية الأخرى أيضاً .

وهكذا تهيّأ لمسلمة قائداً مزايا القيادة الأصيلة ، ومزايا العناصر البشرية والمادية ، مما جعله في عِداد أعظم القادة على عهد بني أميّة .

وإذا كان لي أن أصنف قادة الفتح في عهد بني أميّة إلى طبقات ، فالطبقة الأولى من القادة هم : محمد بن القاسم الثّقَفِيّ وقُتَيْبة بن مُسْلم الباهليّ في الجبهة الشرقية ، وزهير بن قيس البَلَوِيّ (١) وعُقْبَة بن نافع الفِهْرِيّ (٢) وحَسّان بن النُّعمان الغَسّانيّ (٣) وموسى بن نُصَيْر اللَخْمِي (٤) وطارق بن زياد (٥) في الجبهة الغربية .

أما الطبقة الثانية ، فمسلمة على رأسها بدون استثناء ، ومن هذه الطبقة معاوية بن أبي سفيان (٦) وعبدالملك بن مروان (٧) ومروان بن محمد (٨) آخر خلفاء بني أُميّة في الشام .

وقد انتصر قادة الطبقة الأولى بكفاياتهم وحدها ، وانتصر قادة الطبقة الثانية بكفاياتهم وموارهم ، والطبقة الأولى جنود متميزون وقادة متميزون ، والطبقة الثانية قادة متميزون حسب .

---

(١) انظر تفاصيل سيرته في : قادة فتح المغرب العربي (١/١٥٠—١٧٠) .
(٢) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا : عقبة بن نافع الفهرى ، وفي قادة فتح المغرب العربي (١/٩٠-١٣٦)
(٣) انظر تفاصيل سيرته في : قادة فتح المغرب العربي (١/١٧٢—٢٢٠) .
(٤) انظر تفاصيل سيرته في : قادة فتح المغرب العربي (١/٢٢١—٣٠٩) .
(٥) ترد سيرته في كتابنا : قادة فتح الأندلس والبحار .
(٦) انظر سيرته في قادة فتح الشام ومصر (٢٢٩—٢٣٥) .
(٧) انظر سيرته في قادة فتح المغرب العربي (٢/٩٥—١٥٢) .
(٨) ترد سيرته في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي .

مسلمة في التاريخ

يذكر التاريخ لمسلمة ، أنه كان أوسع الأمويين فتحاً برّاً ، وأعظم قادتهم بعد معاوية بن أبي سفيان (١) .

ويذكر له أنه كان أبرز شخصيّة أموية بعد معاوية بن أبي سفيان وعبدالملك بن مروان .

ويذكر له أنه ، أكثر الأمويين فتحاً في الأنضول ، وأكثر من غير الأمويين الفاتحين في هذه المناطق ، وبذلك أمّن الحدود الشمالية البريّة للدولة وحماها من صولة الرُّوم .

ويذكر له ، أنه كان خليفة بغير خلافة ، وملكاً غير متوّج من بني أميّة .

ويذكر له حماسته الفائقة في جميع الشّمل ورصّ الصفوف ووحدة الكلمة من أجل المصلحة العليا للدولة .

ويذكر له أنه سخّر كفاياته الفذة لخدمة الدولة ، ولم يسخر الدولة لخدمة طموحه الشخصيّ .

ويذكر له التفوق على الخلفاء الذين تولوا الخلافة بعد أبيه ، دون أن يستغل تفوقه في منافسة الخلفاء على السُّلطة .

ويذكر له أنه طهّر الجبهة الشرقية ، والجبهة الشمالية ، والجبهة الشمالية الشرقية ، من أعداء الدولة ، وأخضع تلك المناطق الشاسعة للسُّلطة الشرعيّة .

ويذكر له ، أنه كان رجل دولة بكل معنى الكلمة ، قضى معظم سني حياته مجاهداً من أجل الوحدة وموحّداً من أجل الجهاد .

ويذكر له أنه كان إدارياً حازماً ، بالرغم من أنه لم يخلق والياً بل خلق غازيا .

ويذكر مزاياه الرفيعة خلقاً وسلوكاً وورعا ، بالاضافة إلى العلم والأدب الشعر والكرم والمروءة .

---

(١) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (١٧٤-١٩٤) .

ويذكر له أنه قضى أربعة أخماس عمره بعد بلوغه مبلغ الرجال في ساحات الجهاد ، ولم يسقط السيف من يده في السنوات الباقية من عمره إلاّ مضطراً ومكرها .

ويذكر له أنه أعظم من حاصر (القسطنطينية) (٢) من القادة العرب المسلمين .

ويذكر له أنه فتح مدناً وحصوناً كثيرة وبلاداً شاسعة ، لا يزال أثر اللغة العربية فيها باقياً حتى اليوم ، ولا تزال متمسكة بالدين الحنيف .

رحم الله القائد الفاتح ، الاداري الحازم ، الأديب الشاعر ، العالم المحدّث ، المجاهد الأنسان ، مسلمة بن عبدالملك بن مروان .

★ ★ ★

محمود شيت خطاب

---

(١) أفاض بروكس (E.W. Brooks) في سرد غزوات المسلمين في آسية الصغرى ، مستقياً ذلك من المراجع العربية مع التعليق عليها في بحثه الموسوم : « العرب في آسية الصغرى من سنة (٦٤١م) الى سنة (٧٥٠م) وعنوان هذا البحث : (The Arabs in Asia Minor, 641 To 750) المنشور في مجلة الدراسات الهلنية (Journal of Hellenic Studies) المجلد (١٨) سنة (١٨٩٨م) . وقد عالج موضوع حصار القسطنطينية العظيم في أيام خلافة سليمان بن عبدالملك في مقال نشره في مجلة الدراسات الهلنية أيضاً (المجلد ١٩ لسنة ١٨٩٩ م) بعنوان : حملة سنة ٧١٦ م الى سنة ٧١٨ م بحسب المراجع العربية» (The Campaign of 716 to from Arabis Sources) وتناول هذا الموضوع من الجانب البيزنطي الأستاذ جي بي بوري (J.B. Bury) في كتابه : (Histor of the Later Rooman Empire) المجلد الثاني ص (٤٠١) ، انظر الهامش (٩) من كتاب : بلدان الخلافة الشرقية (١٧٠) .

المصادر والمراجع

الآلوسي (محمود شكري الالوسي) :

١ — بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب — ط٣ — تحقيق الأستاذ محمد بهجة الأثري — القاهرة ١٣٤٢ هـ .

ابن الأثير (عزالدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم ابن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري) :

٢ — الكامل في التاريخ — بيروت — ١٣٨٥ هـ .

ابن تغرى بردى الأتابكى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى) . :

٣ — النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة — القاهرة — ١٣٨٣ هـ .

ابن حبيب (أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي) :

٤ — المحبّر — تحقيق ايلزه ليختن شتيتر (الدكتورة) — بيروت — ١٣٦١ هـ .

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني) :

٥ — تهذيب التهذيب — حيدر آباد الدكن — ١٣٢٧ هـ .

ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي) :

٦ — أسماء الخلفاء والولاة — ملحق بجوامع السيرة — القاهرة — بلا تاريخ .

٧ — جمهرة أنساب العرب — تحقيق عبدالسلام هارون — القاهرة — ١٣٨٢ هـ .

ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي) :

٨ — صورة الأرض — ليدن —١٩٣٨ م .

٩ — صورة الأرض — بيروت — بلا تاريخ .

ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبه) :

١٠— المسالك والممالك — تحقيق (M. J. De Goeje) — ليدن ١٨٨٩م .

ابن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون المغربي) :
١١ــ تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (ــ بيروت ــ ١٩٦٦ م) .
ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدم العلائي المعروف بابن دقماق) :
١٢ــ الانتصار لواسطة عقد الأمصار ــ تحقيق الدكتور ڤوليرس Vollers بولاق ــ ١٨٩٣ م .
ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر المعروف بابن رسته) :
١٣ــ الأعلاق النفيسة ــ ليدن ــ ١٨٩٢ م .
ابن سعد (أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري) :
١٤ــ الطبقات الكبرى ــ بيروت ــ ١٣٧٦ هـ .
ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي) :
١٥ ــ عيون التواريخ ــ مخطوط في دار الكتب بالقاهرة رقمه (١٤٩) تاريخ .
١٦ــ فوات الوفيّات ــ تحقيق محي الدين عبدالحميد ــ القاهرة ــ ١٩٥١ م .
ابن شاهين (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري) :
١٧ــ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ــ تحقيق بولس راويس ــ باريس ــ ١٨٩٤ م .
ابن عبدالحكم (أبو محمد عبدالله بن عبدالحكم) :
١٨ــ سيرة عمر بن عبدالعزيز ــ القاهرة ــ ١٣٧٣ هـ .
ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي) :
١٩ــ العقد الفريد ــ القاهرة ــ ١٩٦٢ م .
ابن العبري (غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري) :
٢٠ــ مختصر تاريخ الدول ــ بيروت ــ ١٨٩٠ م .
ابن المعتز (عبدالله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هرون الرشيد) :
٢١ــ طبقات الشعراء ــ القاهرة ــ ١٣٧٥ هـ .
ابن عساكر (أبوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين بن عساكر) :

٢٢– تاريخ دمشق – مخطوط بدار الكتب في القاهرة رقمه (٤٩٢) تاريخ .
٢٣– تهذيب ابن عساكر – دمشق – ١٣٢٩ هـ .
ابن العماد (أبو الفلاح عبدالحي بن عماد الحنبلي) :
٢٤– شذرات الذهب – القاهرة – ١٣٨٧ هـ .
ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني المعروف بابن الفقيه) :
٢٥– مختصر كتاب البلدان – تحقيق (M. J. De Goeje) – ليدن – ١٨٨٥م .
ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري) :
٢٩– الشعر والشعراء – بيروت – ١٩٦٤ م .
٢٧– عيون الأخبار – القاهرة – ١٣٨٣ هـ .
٢٨– المعارف – تحقيق ثروت عكاشة – ١٩٦٠ م .
ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير) :
٢٩– البداية والنهاية – بيروت – ١٩٦٦ م
أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفدا) :
٣٠– تقويم البلدان – تحقيق رينود والبارون ماك كوكين ديسلان . باريس – ١٨٤٠م
٣١– المختصر في أخبار البشر – القاهرة – بلا تاريخ .
أبو الفرج الأصبهاني (أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني) :
٣٢– الأغاني – طبعة دار الكتب – القاهرة – بلا تاريخ .
أبو نعيم (أبو نعيم الأصبهاني) :
٣٣– حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – القاهرة – ١٣٥١ هـ .
أحمد رضا :
٣٤– معجم متن اللغة – بيروت – ١٣٧٧ هـ .
الأربيلي (عبد الرحمن سنبط قنيتو الأربيلي) :
٣٥– خلاصة الذهب المسبوك في مختصر تاريخ الملوك – بغداد – بلا تاريخ .
الأزديّ (أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي) :
٣٦– تاريخ الموصل – القاهرة – ١٣٨٧ هـ .
أسد رستم (الدكتور) :

٣٧ــ الرُوم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ــ بيروت ــ ١٩٥٥ م .

أسمذارد (ر. ر. اسمذارد) بالاشتراك :

٣٨ــ الجغرافية العمومية ــ مراجعة وتنقيح محمد عوض إبراهيم ــ القاهرة ــ ١٣٢٧ هـ

الاصطخري (أبو اسحق الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي) :

٣٩ــ الأقاليم ــ مطبوع على الحجر ــ تحقيق مدلر .

٤٠ــ المسالك والممالك ــ تحقيق الدكتور محمد جابر عبدالعال الحسني ــ مراجعة شفيق غربال ــ القاهرة ــ ١٣٨١ هـ .

الأصفهاني (حمزة بن حسن الأصفهاني) :

٤١ــ تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ــ بيروت ــ ١٩٦١ م .

البسوي (أبو يوسف يعقوب بن سفيان البسوي) :

٤٢ــ المعرفة والتاريخ ــ تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ــ بغداد ١٩٧٤م ــ ١٩٧٦م .

البشاري (أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشارى) :

٤٣ــ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ــ تحقيق (M. J. De Goeje) ط٢ ــ ليدن ــ ١٩٠٦ م .

البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري) :

٤٤ــ أنساب الأشراف ــ تحقيق (S. D. F. Goitein) القدس ــ ١٩٣٦م

٤٥ــ فتوح البلدان ــ تحقيق عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ــ بيروت ــ ١٣٧٧ هـ ــ.

بينز (نورمان بينز) :

٤٦ــ الامبراطورية البيزنطية ــ تعريب الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ــ القاهرة ــ بلا تاريخ .

الجاحظ (ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ)

٤٧ــ البيان والتبيين ــ تحقيق حسن السندوبي ــ ط ٤ ــ القاهرة ــ ١٣٧٥ هـ .

٤٨ــ الحيوان ــ القاهرة ــ ١٣٦٢ هـ .

٤٩ــ عظماء من ذوي العاهات خلّدهم التاريخ ــ القاهرة ــ ١٣٩٢ هـ .

الجهشياري (أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري) :

٥٠ــ الوزراء والكتاب ــ القاهرة ــ بلا تاريخ .

الخانجي (محمد أمين الخانجي) :

٥١ــ منجم العمران ــ القاهرة ــ ١٣٢٥ هـ .

الخطيب البغدادي(أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب) :

٥٢ــ تاريخ بغـــداد ــ القاهرة ــ ١٣٤٩ هـ .

خليفة بن خيـــاط :

٥٣ــ تاريخ خليفة بن خياط ــ تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ــ النجف ــ ١٣٨٦ هـ .

الذّهبي (الحافظ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذّهبي) :

٥٤ــ تاريخ الاسلام ــ القاهرة ــ ١٣٦٧ هـ .

٥٥ــ دول الاسلام ــ حيدر آباد الدكن ــ ١٣٦٤ هـ .

٥٦ــ العبر في خبر مَن غبر ــ الكويت ــ ١٩٦٠ م .

الزاوي (طاهر أحمد الزاوي) :

٥٧ــ ترتيب القاموس المحيط ــ القاهرة ــ ١٩٥٩ م .

الزبيدي (محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي) :

٥٨ــ تاج العروس في جواهر القاموس ــ القاهرة ــ ١٣٠٦هـ ــ ١٣٠٧هـ .

الزبيري (أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري) :

٥٩ــ نسب قريش ــ تعايق إ . ليفي بروفنسال ــ القاهرة ــ ١٩٥١ ــ ١٩٥٣ م .

الزركلي (خيرالدين الزركلي) :

٦٠ــ الأعلام ــ ط٢ ــ القاهرة ــ ١٣٧٣ ــ ١٣٧٨ هـ .

زيدان (جرجى زيدان) :

٦١ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ القاهرة ــ ١٩١٤ م .

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) :

٦٢ــ تاريخ الرسل والملوك ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ القاهرة ــ ١٩٦٤ م .

العجاج (عبدالله بن رؤبة التميمي) :

٦٣ــ ديوان العجاج ــ تحقيق الدكتور عزة حسن ــ بيروت ــ ١٩٧١ .

العصامي (عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي المكيّ) :

٦٤ــ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ــ القاهرة ــ بلا تاريخ .

علي صافي حسين :

٦٥ــ مسلمة بن عبدالملك ــ القاهرة ــ ١٩٦٤ م .

عنان (محمد عبدالله عنان) :

٦٦ــ مواقف حاسمة ــ القاهرة ــ ١٣٤٥ هـ .

غلوب (جون باجوت غلوب) :

٦٧ــ الفتوحات العربية الكبرى ــ تعريب خيري حماد ــ القاهرة ــ ١٩٦٣ م .

الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي) :

٦٨ــ القاموس المحيط ــ القاهرة ــ ١٣٠٦ هـ .

القزويني (زكرياء بن محمد بن محمود القزويني) :

٦٩ــ آثار البلاد وأخبار العباد ــ بيروت ــ ١٣٨٠هـ :

القلقشندي (أبو العباس أحمد القلقشندي)

٧٠ــ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ــ تحقيق إبراهيم الأبياري . القاهرة ــ ١٩٥٩ م .

كردعلي (محمد كرد علي) :

٧١ــ خطط الشّام ــ ط ٢ ــ بيروت ــ ١٣٨٩ م .

كليتي (برنارودين كليتي) :

٧٢ــ فتح القسطنطينية ــ ترجمة شكري محمود نديم ــ بغداد ــ ١٩٦٢ م .

لسترنج (Guy Le Strange) :

٧٣ــ بلدان الخلافة الشرقية ــ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ــ بغداد ١٣٧٣م

مجمع اللغة العربية (القاهرة) :

٧٤ــ المعجم الوسيط ــ ط ٢ ــ القاهرة ــ ١٩٧٣ م ، .

مجهول (مؤلف مجهول) :

٧٥ــ العيون والحدائق في أخبار الحقائق ــ تحقيق (M. J. De Goeje) ليدن ــ ١٨٧١ م

محمود فهمي المهندس :

٧٦ــ البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ــ بولاق ــ ١٣١٢ هـ .

المرزباني (أبو عبيدالله محمد بن عمران بن موسى المرزباني) :

٧٧ــ معجم الشعراء ــ تحقيق عبدالستار أحمد فراج ــ القاهرة ــ ١٣٧٩ هـ .

المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي) :

٧٨ــ التنبيه والاشراف ــ القاهرة ــ بلا تاريخ .

٧٩ــ مروج الذّهب ومعادن الجوهر ــ بيروت ــ ١٣٨٥ هـ .

المقدسي (مطهر بن طاهر المقدسي) :

٨٠ــ البدء والتاريخ ــ شالون ــ ١٩١٦ م .

النووي (أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي) :

٨١ــ تهذيب الأسماء واللغات ــ القاهرة ــ بلا تاريخ .

هنس (فالتر هنس Wal the Hinz) :

٨٢ــ المكاييل والأوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري ــ ترجمه عن الألمانية الدكتور كامل العسيلي ــ عمان (الأردن) ــ ١٩٧٠ م .

ولها وزن (يوليوس ولهاوزن) :

٨٣ــ الدولة العربية وسقوطها ــ ترجمة يوسف العش ــ دمشق ــ ١٣٧٦ هـ .

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي) :

٨٤ــ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ــ كوتنكن ــ ١٨٤٦ م .

٨٥ــ معجم البلدان ــ القاهرة ــ ١٣٢٣ هـ .

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي) :

٨٦ــ البلدان ــ ليدن ــ ١٨٩٢ م .

المراجع الاجنبية

87- Chember's Encyclopedia.
88- Encyclopedia Britannica.
Brooks, E.W :
89- The Arabs in Asia minor, 641-750- Journal of Hellenic Studies - Vol 18-1898
90- Byzantines and Arabs in the Time of early Alasid, 750 to 813 - English Historicab Review - First Part - Octobre - 1900
91- The Compain of 716 to 718 from Arabic Sources - Journal of Hellenic Studies-Vol 19-1899.
92- Arabic Lists of the Byzantine Themes - Journal of Hellenc stadies - Vol 21-1951.
Bury, J.B., :
93- History of the Later Roman Empire from The Ball of Jrene to the Aecession of Basil 1, (8.2—867) — London.
94- History of the Later Roman Empire from Arcedius to Jrane (395—565) — London.
Chei RA, M.A., :
95- La Lutte Arrabes E7 Byzntins-Alexandrie - 1947.
Gibbon, E., :
96- Decilne and Fall of Roman Empir - London - 1897 - 1902.
Vasilieav. A.A., :
97- The Byzantin Empire.